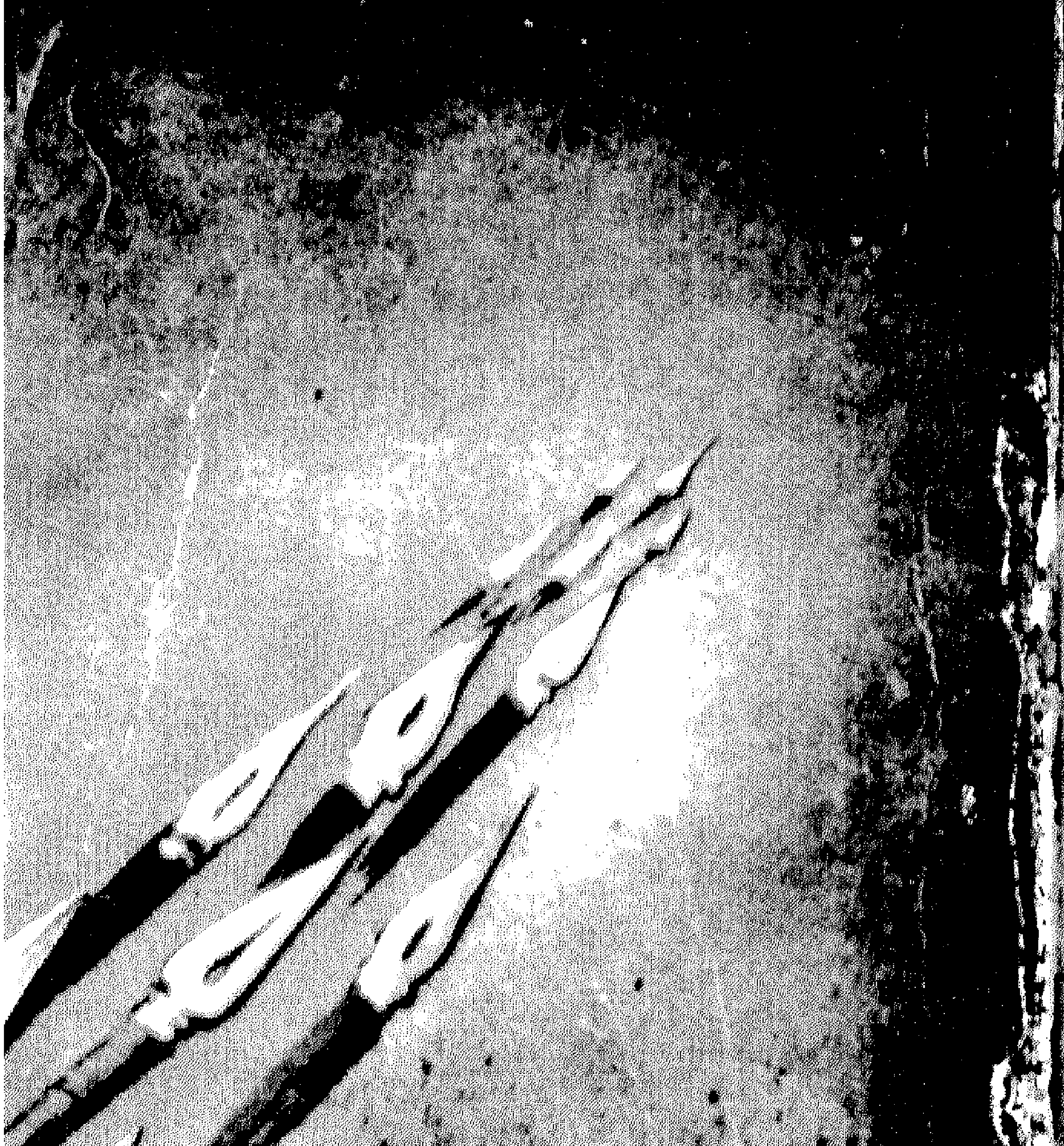
اقرأ

مأمون غريب

مع مشاهير الفكر والأدب

عدد ممتاز



اقرأ

تصدر أول كل شهر

[٥٠١] يوليو - ١٩٨٤

مأمون غريب

مع مشاهير الفكر والأدب



دار المعارف

تصميم الغلاف : منال بدران

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

مقدمة الكتاب
بقلم : رشدى صالح

يطالع القراء فى فصول هذا الكتاب، مجموعة من الأحاديث التى أدلى بها أدباء معروفون، وهى أحاديث تقع على الحدود بين الأدب والصحافة .

وهى تقع على حدود الأدب ؛ لأنها تشير إلى بعض تجارب هؤلاء الأدباء فى إنشاء أعمالهم وعلاقتهم بها .

وهى تقع على حدود الصحافة ؛ لأنها تدور حول أسماء لم تزل فى دائرة الأخبار والأحداث التى تهم قارئ الصحيفة والمجلة .

لكن السير على الحدود بين عالمين مختلفين، يتميز أحداهما عن الآخر كعالم الأدب وعالم الصحافة، ليس أمرًا سهلا ولا هو بالأمر المضمون العواقب دائمًا .

إن السير على هذا الطريق، يحيط به خطر الاستغراق فى الأدب، أو خطر الاسترسال فى عالم الصحافة.

والأمران كلاهما، ينتزعان موضوع هذه الأحاديث فى الإطار المرسوم لها.

والدرب الصحيح بين هذا العالم وذلك، هو الدرب الذى اختاره المؤلف، حين كان يوجه عددًا محدودًا من الأسئلة، يوصفها فى أن تجعل الأديب المتحدث، يخاطب القراء وكأنه جالس بينهم، يشاركهم الحديث فى شئون الفكر والأدب والحياة، ويعترف لهم – دون أن يتعمد الاعتراف – ببعض ما يشغل قلبه ويزحم خاطره.

وإذا كان إجراء الأحاديث الصحفية الناجحة فنًّا دقيقًا، يعتمد على حدة الذكاء وحضور البديهة وسعة الأفق، وعضوية المنطق، فإن إجراء هذه الأحاديث مع الأدباء، فن أشدّ دقة وإرهاقًا. فالأديب، رجل دربته الحياة على أن يختبر الكلمات، ويعرف مداها، ويكشف منها وبها عن صفاء الأسئلة التى توجه إليه.

وإذا لم تقع هذه الأسئلة من نفسه موقع القبول، فإنه يعرف كيف يستخدم ملكته الطاردة فى تصفية هذه الأسئلة، وردها إلى الوراء. وعندما شرع المؤلف يفكر فى موضوع هذه الفصول، لم يكن يريد أن يلعب دور الطبيب الذى يستدرج الأدباء إلى عيادته النفسية ويحصل منهم على اعترافات شخصية، ولم يكن يريد كذلك أن يفتش فى حياتهم عن الأشياء المثيرة، الغريبة.

لقد كان فى ذهنه أن يطبق معهم كلمة تقول:

- دعهم يتكلمون.

وأن يطبقها بأسلوب رقيق، وكأنه يوجه الأسئلة بالنيابة عن القارئ الذكى الذى يتابع إنتاج هؤلاء الأدباء، بحيث يجرى الحديث بينهما، موسومًا بالصداقة والمحبة، تلبية لدعوة رقيقة، إلى أن يقول الأديب المتحدث كلمته كاملة وعن طيب خاطر وصفاء نفس، وأحيانًا يكون جزءًا من بلاغة الحديث. والندرة فى توجيه الأسئلة، جزء من عيوب الحوار.

وحين استكمل المؤلف فصول كتابه، وقرأتها مجموعة معًا، بدا واضحًا، كيف أنها قد أصبحت معرضًا لآراء مجموعة من الأدباء يمثلون تجارب مختلفة ومسالك متنوعة وتصورات متميزة فى الأدب والحياة.

وبينما كان بعض أصوات الأدباء الشبان، تعلن رفضها لإنتاج الأجيال السابقة، كان المؤلف مشغولا، بأن يجرى هذه الأحاديث مع أدباء من هذه الأجيال، التى يمثل فضل السبق والريادة فيها أستاذنا الدكتور طه حسين، كما يمثل ثراء الإنتاج والريادة بعد ذلك، أولئك الأدباء الذين تقترن أسماؤهم بفنون الرواية والقصة والمسرحية والشعر والمقال الأدبى والنقد.

إن بناء الأدب العربى الحديث، هو عطاء الأجيال المتعاقبة

جميعًا، وهو الوثيقة التى تكتب سطورها الأولى لتستقبل سطورها التالية وبلا نهاية.

ولم تزل الدراسات والكتابات منشورة حول إنتاج كل من يبدع عملا جديرًا بأن ينتسب إلى الأدب.

هذا الأدب يسمح بظهور أشكال جديدة ومتنوعة فى تناول أنحائه ومشكلاته واتجاهات إنتاجه.

وإجراء الأحاديث مع الأدباء، هو بعض هذه الأشكال التى أخذ بها مؤلفون أرادوا أن يضيفوا بين أيدى القراء فى أوربا وغيرها حقائق الحركة الأدبية أو الفنية من خلال أحاديث تفد من المشتغلين بالأدب أو الفن.

بل لقد عمد بعض النقاد الأوربيين فى السنوات الأخيرة، إلى أن يضمنوا دراساتهم - عن المسرح مثلا - أحاديث يدلى بها كبار المخرجين والمثقفين من رجال المسرح والممثلين، فكانت كتبهم تضم رؤيتهم الخاصة التى عرضوها فى سياق الدراسات النقدية البحتة، كما كانت تضم آراء هؤلاء الفنانين، التى قد تتفق أو تختلف مع آراء مؤلفى هذه الكتب.

ولعل القارئ يرى أن بين الأحاديث المنشورة فى هذا الكتاب، عنصرًا هامًا مشتركًا، هو أنها تعبر عن تجربة الكتابة للقراء، فى ظل ظروف تغطى ما بين الحرب العالمية الأولى حتى صدور هذا الكتاب، كما أنها تعبر عن صلة الأدباء المتحدثين، بقارئ الكلمة المطبوعة

التى تحملها الدوريات والصحف، ذلك أن قراء الأدب يؤلفون قسماً نابهاً من قراء الصحف، كما أن مادة الكتابة الأدبية لم تزل تجد طريقها إلى مواد الصحيفة اليومية، والمجلة الدورية.

وسيذكر تاريخ الأدب العربى فى مصر الحديثة، كيف أقام استخدام المطبعة صلة وثقى بين إنشاء الفنون الحديثة فى الأدب، وبين ذيوع الصحف والمجلات وانتشارها إلى أوسع مدى بلغة نطاق القراء.

وما من أديب تحدث إلى مؤلف هذا الكتاب، إلا وهو صاحب أعمال تضيف إلى هذه الصلة بين الكلمة المطبوعة الموجهة إلى قراء الأدب، وتلك الكلمة المطبوعة الموجهة إلى قراء الصحف بلا تمييز بينهم، وطه حسين أثرى الصحافة بإنتاجه الأدبى، والأدباء الآخرون من تلاميذه، وجدوا أنفسهم على الطريق الذى سار فيه طه حسين والعقاد والمازنى وغيرهم، من جيل وأساتذة الأدب العربى الحديث.

وحول الصلة بين الأدب والصحافة، تيار جدل مستمر. فهناك رأى يقول: إن الصحيفة اليومية والمجلة الأسبوعية لا تتسعان لنشر الأعمال الأدبية الخالصة، ولم يجوز لها أن تشغلها عن موادها الخبرية.

والصحيفة بهذا الإنتاج أو فقده، فإذا كان لابدّ لها من أن تنشر عن الأدب، فينبغى أن يكون ذلك بمقدار.

وهناك رأى آخر يقول إن اهتمامات القارئ فى عالمنا المعاصر، تتجه أكثر فأكثر إلى تتبع قراءات العلوم والفكر والفنون، وذلك أن التقدم الذى تحرزه حضارة هذا العصر، يوقظ ملكات القارئ الفرد، كما ينبه الرغبة فى المعرفة لدى كتلة القراء، وكل ذلك جدير بأن يذكى فى هؤلاء الرغبة فى متابعة الإنتاج الأدبى والعلمى.

بل إن اقتصار الصحيفة أو المجلة على الجوانب الخبرية وما يتعلق بها من مواد، هو وضع تجاوزته الصحافة العالمية فى سعيها الدائب صوب الحداثة؛ ففى السنوات الأخيرة زاد الإلحاح على بلاغة الأسلوب المستخدم فى صياغة هذه المواد الصحفية، والبلاغة ملكة من ملكات الأدب ما فى ذلك نزاع.

بل إن بعض الصحف العالمية، تقدم تحقيقاتها السياسية والاقتصادية، وتنشر القضايا الهامة المنظورة أمام المحاكم، وقد صيغت فى أسلوب أدبى لا يراعى فيه التشويق فى السرد.

وإيراد الأحداث المثيرة، يراعى فيه كذلك جودة السبك وإتقان التعبير وتوافر النبض فى تركيبه وسياقه.

ولعل تجربة الأدب مع الصحافة العربية، أو تجربة هذه الصحافة مع الإنتاج الأدبى، تؤكد أهمية المزج بينهما، حينما يكون المزج عنصرًا مناسبًا يعزز إيصال المعنى إلى القارئ، الذى يشترى الصحيفة ليجد فيها نفسه، كما يجد فيها الناس والحياة من حوله.

هكذا تبدو قيمة الفصول التى ينشرها أصحابها من الأدباء

أو حول إنتاج هؤلاء الأدباء متفرقة فى إعداد الصحف والمجلات، ثم يجمعونها ويصدرونها فى كتب تضمها معًا.

إن العديد من هذه الكتب، ينضم إلى الإنتاج الأدبى وبعضها ينضم إلى الإنتاج الذى يقع بين الصحافة والأدب.

لكنها جميعًا تعبر عن رسوخ هذه الصلة التى تنشئها الكلمة المطبوعة فى آدابٍ كل أمة من الأمم، فيكون طرفاها كاتبًا يفتش عن الحياة، وقارئًا يستقبل هذه الكلمات، وتكون هى ذاتها بعض العوامل المؤثرة فى تطوير لغة الأدب من ناحية، ولغة الكتابة الصحفية من ناحية ثانية. وحين يفرغ القارئ من مطالعة هذه الفصول، فأغلب الظن أنه سيجد نفسه مشغولا ببعض ما شغل الأدباء المتحدثين، ولعله ينشغل بمستقبل الصلة بين الأدب والصحافة.

وعلى الرغم من أن الصحف تدير ظهرها الآن للكتابة الأدبية، فإن مسارها يتجه إلى حيث يوجد القارئ النابه فى المستقبل.

وهكذا هذا القارئ سيؤلف الأكثرية من قراء الغد فليس من العبث أن تحرز الحضارة فى عالمنا المعاصر انتصاراتها العلمية الخارقة والمعجزة.

إن هذه الانتصارات جديرة بأن تكون من عوامل التغيير الكبرى فى حياة الإنسان، وفى إنشاء وتجديد اهتماماته الفكرية والوجدانية.

وسيظل الأدب والكتابات الأدبية فى صدر المواد التى يحتاجها القارئ النابه.

وإذا كانت صيحة: أن الخبر وما يتعلق به من مواد، هى صيحة الصحافة الواسعة الانتشار منذ أواخر القرن الماضى، فإن تقريب المعرفة وتقديم المواد العلمية والثقافية والأدبية، قد أصبحت الصيحة ذات المستقبل بالنسبة لما تطرحه وسائل الاتصال الجمعى - وفى مقدمتها الصحافة - على الجمهور الذى تحكمه ضرورات الحداثة والحضارة المعاصرة، وتقوده - أكثر فأكثر - صوب تجديد اهتماماته الفكرية والأدبية سواء بسواء.

رشدى صالح

كلمة

هذه رحلة سريعة مع بعض الأدباء الكبار الذين التقيت بهم .. وتعرفت عليهم .. وربطت بيني وبينهم أواصر المودة والصداقة . وكان لى مع كل واحد من هؤلاء قصة .. والقصة مناسبة للحديث عما انطبع فى ذهنى عن شخصياتهم من جهة ، وإلقاء نظرة عامة على إنتاجهم الثقافى من جهة أخرى . أى أن القارئ سوف يعرف من خلال هذه الصفحات بعض الملامح الأساسية لهؤلاء الذين ألتقى بهم من خلال كتاباتهم .. تلك الكتابات التى كانت علامة طريق فى تطور حياتنا الثقافية . ولعلى أكون قد وفقت .

مأمون غريب

أمين يوسف غراب

أمين يوسف غراب .. كاتب نال جائزة الدولة فى الأدب .. وعندما كنت فى الطريق إليه لأجرى معه حوارًا أدبيًّا .. كان يتداعى إلى ذهنى تلك الرحلة الشاقة المضنية التى قطعها فى طريق الحياة .. فهو لم يدخل مدرسة ولا معهدًا ، ورغم ذلك كوّن نفسه .. فكان هو التلميذ والمدرس .. والمعلم والمتعلم .. و.. أصبح ظاهرة فى حياتنا الأدبية .. !

وعندما جلست إليه .. كان من الطبيعى أن أسأله سؤالا رغم بداهته .. فإن الإجابة عليه تحدد إلى مدى بعيد هدى رؤيته للحياة ، وتبلور فى نفس الوقت فلسفته ومنهجه عندما يمسك قلمًا ويدون به عملا فنيًّا .

– أستاذ أمين .. ما الذى يدفعك إلى الكتابة ؟

ويجيب :

– هناك أناس يعيشون ليأكلوا .. وهناك أناس يأكلون ليعيشوا .. هذا من ناحية الغذاء الجسمانى والتغذية العضوية .. ومن نعمة الله ، أنه خلق صفة أخرى فى الإنسان أشرف صفة ، وإن كانت هى صفة غير معروفة حتى الآن . قال الله عنها : إن أمرها بإذنه وعلمها عنده وهى الروح . وأنا أعتقد أن للروح غذاءً لا بد أن تتغذى به . ويختلف هذا الغذاء عند كثيرين من الناس . قد يكون الذكاء ، وقد يكون الفهم . وأسمى أنواع الغذاء الروحى فى يقينى ، هو الفكر بمشتملاته . أدب وفن وفكر .. ومن يهيئ الله تعالى له هذا الغذاء ، أعتقد أنه هو الذى يعيش ، ولأننى فى قراوات نفسى أكتشفت أننى أريد (أن أعيش) .. كان لا بد لى من الغذاء .. لهذا قرأت .. ولهذا كتبت .. ولهذا أيضًا عشت .. وأرجو الله تعالى ألا يحرمنى من هذه النعمة التى لا تتوافر لكثيرين من البشر .

* * *

ولا شك أن أمين يوسف غراب كاتب شق طريقه بنفسه .. وفى كثير من الأحيان كنت أحسه إنسانًا يغالب الأمواج .. أوهو بمعنى أوضح ، إنسان يسبح عكس التيار .. ومع ذلك .. ورغم أنه نال جائزة الدولة فى الأدب .. فقد برز فى ذهنى علامة استفهام .. هل تحددت ملامح أدبه ؟ .. هل اتضحت قسماته ؟

يجيبنى الكاتب :

– مما لاشك فيه أنه بينى وبين نفسى قد تبلورت اتجاهاتى ، ولذلك أعمل جاهدًا على تعميقها .. وإبراز معالمها ..أما إن سألتنى هل كتبت ما أريد أن أكتب ، فأنا أقول لك حتى الآن .. لا ، ولا أدرى هل أوفق إلى هذا يومًا .. أم سأظل مهما امتد بى العمر فلن أقدر على كتابة ما أريد أن أكتب . – وبينى وبينك – أو فى قرارة نفسى ، أنا لا أريد لنفسى هذا التوفيق . لأنى إذا بلغته وكتبت ما أريد فسأكون بلا شك قد انتهيت . والآن يبرز الجواب الأول وهو إيمانى بأن اتجاهاتى قد تبلورت لى .. هذه الاتجاهات تستطيع أن تضيف إليها السؤال الأول ، وهو : لماذا أكتب ؟ ..

ويصمت قليلا ويعود إلى الحديث :

– الفن أو الفنان الحقيقى ، هو فى إيمانى طبيب المجتمع .. والمآسى فى كل مجتمع كثيرة ومتعددة .. أهمها مأساة الإنسان نفسه ، الإنسان الذى ما زال يجهل نفسه .. وقد عرفت ذلك فى نفسى أولا .. أيقنت فى بداية حياتى أننى أجهل نفسى ولا سبيل إلى التعرف إليها إلا عن طريق الفن والأدب . ويضع ذلك الطبيب الذى قلت عنه إنه فنان .. فوجدت أن مأساة الإنسان فى حقيقتها هى فى جذور المجتمع الذى يعيش فيه .. وكما يتطور كل شىء .. كذلك لا بد للمجتمع أن يتطور .. وكان الذى يدهشنى أن كل شىء .. الجماد .. النبات والحيوان .. كل ذلك يتطور .. البذرة تنبت

والشجرة ترتفع .. والغصن يورق .. والعصفور يكبر وتكون له أجنحة ويحلق فى السماء .. والحيوان كذلك .. كل ذلك كان فى عينى يتطور وينمو . ولكن الشىء الوحيد الذى كان يقف جامدًا فى عينى هو الإنسان . وعندما حاولت التعرف على حقيقة الجمود الإنسانى ، وجدته فى ذاتيته نفسها .. فى خلقه .. فى عواطفه .. فى حبه .. فى الجنس الذى يعيش به وجاء منه .. كل هذه أشياء كانت معماة .. ولا أستطيع أن أراها فى نفسى .. وبالتالى لن أستطيع أن أراها فى غيرى .. فحاولت أن أفك هذه الطلاسم .. وأن أرجع أسبابها إلى الحقيقة ، فوجدت أن أهمها هى العاطفة التى تجمع بين الأب وابنه والأخ وأخيه . والزوج وزوجته .. والحبيب وحبيبته .. لذلك أستطيع أن أقول : إننى بدأت أعالج هذه الأمور عندى أولا ، بدأت أحس أنى تطورت ، فكان لزامًا على أن أكتب بعد أن – تبلورت الحقيقة فى عينى .. واتخذت طريقًا واحدًا هو الذى أستطيع أن أسير فيه ، وأن أبصر غيرى بمعالمه .. وهو طريق العلاقة بين المرأة والرجل .. والإشباع الروحى بينهما . حتى أستطيع أن أكون أسرة صالحة .إذن : إن المجتمع الصالح بذرته دائمًا الأسرة الصالحة . ولم أجد غير القصة هى التى تيسر لى سبيل الطريق الذى أسير فيه .

– يقولون عنك : إنك صريح فى الجنس أكثر من اللازم ؟

– أنا أعتقد أن هذه الصراحة هى السبيل إلى تأدية رسالتى إذا كانت لى رسالة ؟

واضح من هذا الكلام الذى يرويه المؤلف، أن له خيطًا معينًا يربط إنتاجه الفنى كله.. وكما أن الجنس المحرك لسلوك الإنسان عند فرويد مثلا.. فإن يوسف غراب، قصصى على الطريقة الفرويدية - إن صح هذا التعبير - ويبتسم أمين غراب.. لست أدرى استحسانًا أواستهجانًا؟ ولكنه يرد قائلا:

- أقول لك إننى قرأت «فرويد» و«أدلر» وغيرهما من علماء النفس والفلاسفة الذين ركزوا اهتمامهم بهذه الناحية، ولكنى اعترف وأنا صريح.. وهذه الصراحة تؤخذ على أحيانًا ولكنها تضيء لى الطريق دائمًا، اعترف أننى فى قرارة نفسى أحب نصفى الآخر حبًّا لا حدود له.. وهذا هو الذى يبصرنى بحقيقة هذه المذاهب مجتمعة، وهو أيضًا الذى جعلنى أكتب دائمًا. ولا أكتب فى سواها؛ بدليل أننى بدأت حياتى فى القصة ولا أحيد عن كتابتها حتى الآن رغم بعض العروض المغرية للصحافة التى أرادت أن تجذبنى إليها، ورغم وجود بعض الزملاء الذين يكتبون فى كل شيء.. ونتج عن هذا الحب، أنه كان لا بد لى أن فهمه، ولكى أفهمه، كان لا بد لى أن أدرسه دراسة واقعية.. وأستطيع أن أقول: إن الأدب الفرنسى بالذات.. فى شتى مضامينه، قام على دراسة هذه الناحية.. لذلك لم أدرسه فقط، ولكن أكاد أقول قد حفظت أكثره عن ظهر قلب.

- ولماذا الأدب الفرنسى بالذات؟

– ذلك لأنه الأدب الوحيد الصريح . يضع دائماً النقط فوق الحروف .. وإذا رجعنا إلى الأعمال الروائية الشامخة ، نجدها متجسمة فى الأدب الفرنسي .. مثلاً صراحة « الفونس دوديه » .. و« وإسكندر ديماس » و« أناتول فرانس » .. و« جورج صاند » .. و« الفريد دى موسيه » .. أدب هؤلاء بصراحته المطلقة .. وبفهمه الحقيقى لقضية الإنسان ، استطاع أن يبصرنى بحقائق كثيرة .. لهذا نهجت هذا المنهج . وهذا الأدب – الفرنسى بالذات – هو الذى يشرح النفس الإنسانية بمبضع ماهر .. كما يشرح الجراح بمبضعه الجسد الإنسانى .

وأذكر لك مثلاً أعاد لى ذكرياتى الماضية فى الأدب الفرنسى ، عندما شاهدت رواية « الموعد » التى يمثلها « عمر الشريف » مع « آنوك إيميه » تذكرت على الفور مأساة إسكندر ديماس الإبن « غادة الكاميليا » وكيف أراد هذا الكاتب أن يعرفنى من هى (المومس) التى كل من يمر عليها إن لم يلق عليها بحجر ألقى ببصقة .. كم هى إنسانة ، وكم هى كبيرة القلب . ثم جاء مؤلف الموعد فأخذ شطراً مريراً من مأساة المومس هو فى يقينى أمرّ بكثير من مأساة « مرجريت جوتيه » بطلة غادة الكاميليا .. مأساة المرأة التى قدر لها أن يكون لها ماض .. وكيف أن الماضى (بالنسبة لعقلية المجتمع) .. هذه العقلية السخيفة ، يطاردها ويلوثها .. حتى وهى فى المحراب تصلى إلى النار .. وتعبد من تحب .. لتأثرى بهذا الأدب اتجهت هذا

الاتجاه .. وتبلورت معالم أدبي بيني وبين نفسي .. فأكتب دائمًا عن المرأة بشتى أنواعها ولا سيما المرأة فى الريف التى ما زالت عيونها إلى الآن مغلقة لا ترى الشمس.

– ولماذا المرأة فى الريف؟

– إن أى امرأة فى الشرق .. ومهما بلغت ثقافتها .. ومهما اعتلت من مجد فهى جاهلة بالنسبة لوظيفتها كامرأة .. إن الشرق مازال إلى الآن، ديدنه هو الجنس بمفهومه عند الشرقيين .. رجل يعاشر امرأة .. ليس هو الجنس وليس هذا هو الفهم الحقيقى لذاتية الرجل أوذاتية المرأة .. إن الجنس هو الإشباع الروحى لكل من الطرفين .. وليس الانغماس فى الرذيلة بالنسبة للطرفين .. إنك فى الشرق إذا سرت فى الطريق بسيارتك مثلاً .. وكانت الأمطار تهطل، ووجدت سيدة حائرة لا تجد سيارة .. وأشفقت عليها لتنقذها من هذا المطر .. ووقفت بسيارتك شتمتك على الفور.. ذلك لأن السوء دائمًا هو الذى فى نفسها!!

– فى رأيى أن المرأة عندها حق .. فلكى نغير المرأة لابد أن نغير مفاهيم المجتمع.

– إنك متفق معى فيما أقول لأننا مادمنا تعرفنا على حاجاتنا وبصّرنا الجهلاء بالحقيقة. فمما لاشك فيه سوف يتغير هذا المجتمع ..

هذه هى عين القضية. هو أننا لابد أن نبصر المجتمع بالحقائق ولكى نبصره، لابد أن نكون صرحاء مع أنفسنا أولاً ومعهم ثانيًا.

فإذن لا يضرنى ، بل بالعكس يسعدنى كل هجوم علىّ وعلى أدبى عندما يصفونه بأنه : أدب جنسى !.. هذا يسعدنى كثيرًا لأننى أكتب من أجل هؤلاء الذين يتهموننى هذا الاتهام . لأنهم لو عرفوا حقيقة أنفسهم لاستطاعوا فهم الحقيقة !

* * *

– واضح أن الذين يقولون عن أدبك : إنه أدب جنسى هم النقاد .. فهل تعنى أنك غير معترف بآراء النقاد فيك ؟

– مما لاشك فيه ، أننى غير معترف بكل ما يقولون . ذلك أن النقاد عندنا ينقسمون إلى قسمين :

قسم مدرك للحقائق ولكنه يريد لكى يكون مربيًا أن يضع العمامة الكبيرة على رأسه دائمًا ، ظنًّا منه أن هذا يجعل الناس تحترمه . والقسم الآخر مدرك للحقائق أيضًا . ولكنه موتور أو حاقد .. ولذلك يقول ما يقول .. وبالنسبة لهؤلاء دائمًا أقول وأنا أخرج لسانى : (تعالوا ، اكتبوا زيى) .. وهؤلاء النقاد بشطريهم وأنا أعترف بثقافتهم . لو أنهم كانوا صرحاء .. أو بمعنى آخر : لو لم يكونوا جبناء ، لكتبوا غير ما كتبوا . أعرف ناقدًا كبيرًا لا داعى لذكر اسمه .. شاهدته ذات يوم يشاهد فيلمًا كان يعرض بسينما راديو اسمه (الغزلان) .. كان الفيلم يعالج مشكلة الجنس علاجًا صريحًا وواضحًا . وعند خروجنا من السينما توجهنا إلى أحد المقاهى .. وسألته عن الفيلم فقال : إنه يراه لثالث مرة .. وراح يحدثنى عن

الفيلم وقصته حديثًا رائعًا .. وحديث فاهم، بل أستطيع أن أقول إنه بصرنى بأشياء فى الفيلم عميت على .. فقلت له بإخلاص:

– لماذا لا تكتب هذا يا أستاذ؟

فكاد فنجان القهوة يسقط من يده وقال:

– هل تريد أن يقولوا عنى أنى كاتب جنس؟..

هؤلاء هم النقاد عندنا .. وأرجو أن نسرع بالفراغ من الحديث عنهم؟

* نترك النقاد لحالهم وأبعد عنهم مغبة لسانك وأسألك من جديد سؤالاً شخصيًّا .. يتعلق بآخر أعمالك الأدبية؟

هذا السؤال يسبب لى حرجًا كثيرًا وارتباكًا كثيرًا. فقد تعودت منذ بداية حياتى الأدبية، ألا أشتغل فى عملين معًا. وكان هذا يفيدنى ويريح أعصابى كثيرًا. أما فى هذه الأيام. أو على وجه التحديد من سنتين، وجدتنى أشتغل فى أربع أعمال دفعة واحدة ..

وقد تسألنى عن سبب ذلك، فأقول لك: إن الكاتب كالصياد .. يتمنى أن يلتقط بشبكته صيدًا. إذ ليس من السهل عليه أن يجد الفكرة الصالحة أولاً، والتى يرضى عنها ثانيًا. ولعله من سوء حظى أن الشبكة كانت من الخير كما يقول الصيادون بحيث إنها أعطتنى أكثر من صيد، وتجدنى الآن حائرًا أجلس بالساعات أفكر .. لا فى أيهم أبدأ، فقد بدأت فيهم جميعًا .. ومن هذه الأعمال ما قطعت فيه

شوطًا كبيرًا .. وقد أتردد بين هذه وتلك ، وإذا بي أنصرف دون أن أكتب فى هذه . أو فى تلك ؟

* ما هى آخر هذه الأعمال ؟

– أولهم قصة طويلة بدأت فيها من العام الماضى . ولا أفكر أنها أتعبتنى ، لأننى أصور فيها عن طريق نفسي . شريحة من حياة عشتها .. منذ زمن بعيد واضحًا وصريحًا . وكم هو مؤلم ومتعب .. وأريد أن أكون كعادتى : فيها هذا الوضوح ، وهذه الصراحة . وأرجو أن أخلص منها قريبًا وأن يوفقنا الله إلى العمل الثانى . فهو فكرة قصة أعجبتنى ، فأردت عندما وجدتها فى الشبكة أن أمسك بها سريعًا حتى لا تفلت من يدى .. ولعلها هى التى أوليها الآن بعض اهتماماتى .. والثالثة ولا أستطيع أن أسميها رواية ، وإنما هى دراسة واقعية للمرأة عبر التاريخ . فمن قراءاتى المتعددة فى السير .. – وهى فى يقينى خير الروايات الواقعية فى التاريخ – أن كثرة من النساء ، كان لهن أدوار حاسمة فى التاريخ . وإن كن بكل أسف جميعهن موصومات . فأردت أن استخلص الحقائق من حياتهن . وأصورها كما هى . وهذه رحلة طويلة ترجع من سنة ٤٠٢ قبل الميلاد .. وما من شك أنها رحلة قاسية .

* ما الذى لاحظته ولم يلاحظه غيرك ممن تناولوا هذه الموضوعات ؟

– لاحظت أن جميع الذين كتبوا عن هؤلاء النساء قد كتبوا عن

واجهة واحدة . أما الواجهات الأخرى التى تسببت فى صعودهن إلى القمة .. أو نزولهن إلى الحضيض . فلم يقولوا عنها شيئًا .

* مثلًا ..؟

– كليوباترا .. تناولها برنارد شو .. وشوقى .. وشكسبير وغيرهم .. والجميع تناولوها من الناحية السياسية .. ومن ناحية الدهاء التى كانت تتمتع به . إن الحقيقة التى كانت هى السلاح لهذا النصر كله .. هى حقيقة الإغراء والجنس عند هذه المرأة ، لم يكتب عنه بصراحة .. وأيضًا « تيودورا » وكذلك « كازين وفلورا » .. كل هؤلاء كن يتاجرن بالإغراء .. والغريب ، أن منهن من تسلقت إلى العروش وحكمن دولًا .. ومنهن من أصبحن بعد ذلك قديسات .. هؤلاء جميعًا جديرات بالدراسة الفاهمة المتعمقة لنفسية المرأة ..!

* وعملك الرابع ؟

– مجموعة قصص أرجو أن أفرغ منها قريبًا .

* سؤال أخير .. ما هو أملك ككاتب .. وكمواطن ؟

– أملى كبير وعسير وشاق ، لعدة أسباب .. منها أن هذا الوطن الذى عشت فيه .. نشأت فيه وأنا طفل وهو محتل . وقرأت عنه وأنا يافع ، أنه كان محتلًا من قبل ، وأنا أعتقد أن جيلى هو الجيل الذى يلاقى الصعاب .. ذلك لأنه قدر لهذا الوطن أن تبرز فيه جماعة مخلصة تحاول أن تنفض عنه غبار مئات السنين التى تراكمت فوقه ، والتى كانت تداس بالنعال كل يوم .. وقد حاولت هذه الجماعة

المخلصة المستحيل . ومازالت إلى الآن تحاول ، المستحيل .. وعندما بدت فى الأفق معالم النجاح ومعالم الانتصار. بدت السنون التى كانت من قديم الزمن تدوس هذا الوطن .. تحيط به وتتألب عليه . إن كل آمالى فى هذه الحياة .. وأعتقد أنها آمال جيلى وهذا الجيل .. أن يقدر لهذه الجماعة النصر حقيقة ، وأن ينتصر لهذا الوطن .. وأن يصبح حرًّا .. لا يحكمه غير أبنائه ، هذا مطلبى الوحيد من الله .. أرجو أن يحققه .

* * *

وينتهى حديثى مع الأديب الذى واجه الحياة أميًّا ، ولكنه لم يخضع لقدره .. فكتب بدموعه وعرقه قصة كفاح جديرة بالتسجيل .. وراح يشق طريقه بثقة فى عالم القصة ويضيف إليها جديدًا .. فإنى فى الوقت نفسه .. أرجو أن أكون قد وفقت فى نقل وجهة نظره بموضوعية .. وإلا فالويل لى .

رحلة فيلسوف حول الناس والعالم

نال أنيس منصور جائزة الدولة التقديرية فى الآداب .. وهذه الجائزة هى أكبر جائزة أدبية فى مصر .. وهى تعطى من مجموع الإبداعات الفنية ككل .. وليست عن عمل واحد .. ولأن أنيس منصور قدم للمكتبة العربية ٦٤ كتابًا .. فقد كانت هذه الجائزة تتويجًا لرحلة فكر .. عاشها الرجل .. محبًّا للفكر .. عاشقًا للأدب .. متيمًا بالفلسفة .

وعندما ذهبت للالتقاء به .. كان يدور فى ذهنى العديد من علامات الاستفهام .. حول فكر المؤلف ونظرته للأمور والحياة .

ولكن ما هو المدخل إلى معرفة أنيس منصور أديبًا وفيلسوفًا وصحفيًّا .. هل المدخل إلى معرفته من خلال ما كتبه عن أدب

الرحلات؟ وإن كان كل ما كتب يعتبر من أدب الرحلات.. لأنه بجانب أنها رحلات من خلال البلدان.. وما شاهد.. وما رأى فيها.. فإن هناك رحلات أخرى قام بها من خلال الإنسان.. وخلال المعرفة.. وخلال بحثه عن الحقيقة.. إنها كلها رحلات عقلية.. وأشعار فلسفية.. ومجاهدات نفسية.. وهى أولًا وأخيرًا أدب.. فهو مسافر زاده الخيال والفن والفلسفة.

ومن الغريب حقًّا.. أنه وسط هذا الزلزال السياسى، والهزات الاجتماعية والبراكين الذهنية فى الشرق الأوسط.. فإنه قد فرغ أخيرًا من كتابة قصة حياته بعنوان «خطوة.. خطوة».. أى كيف انتقل من أرض قلقة فى الريف.. إلى أرض محترقة فى المدينة.. ثم كيف أنه ظل رافعًا علمه وقلمه بحثًا عن الحقيقة التى يؤمن بأنه وراء كل ورقة شجرة، وزقزقة عصفورة، وشرنقة دودة، وصخب موجة.. ولمعان نجم.

فقد اتخذ أنيس منصور شعارًا ارتضاه مدى حياته ولا يزال.. وهذا الشعار يرويه الفيلسوف الوجودى الألمانى مارتن هيدجر: إننى أقف حانى الرأس أمام سيدتى.. انتظر أية إشارة منها فى خشوع.. غير أن سيدتى لم تطلعنى على الكثير من أسرارها.. ولكن أملى عظيم فى أن تفعل أحيانًا.

أما سيدته هذه.. وسيدتنا جميعًا فهى الحقيقة.

هكذا كانت البداية على لسانه:

– فى طفولتى شاهدت الغجر .. وعرفت كيف يعيشون ويتنقلون .. ونظرة الناس إليهم .. وعرفت طفولتى معنى الخوف (المسافة) .. فأنا على مسافة من الناس .. وأنا فى حالة من الخوف .. من الذى جعل هذه المسافة بعيدة ؟ لا أعرف .. من الذى وما الذى أخافنى ؟ لا أعرف .. ولكن لم نشعر بالدفء .. ولم نشعر بالأنس .. لم نجد العشرة .. لم نعرف المودة .. ولا حرارة اللقاء .. ولا ثقل الفراق .. لم نر الأيدى تمتد للسلام ، ولا عند الوداع .. فنحن نجئ ولا يشعر بنا أحد .. ونمشى ولا يدرى بنا أحد .. هل هناك يد تمتد خفية فتزرعنا فى أرض غريبة ، ثم تمتد مرة أخرى فتنقلنا إلى أرض غريبة .. لم أشعر لحظة أنى نبات زرعوه ثم اقتلعوه ، وإنما كنت أشعر أنى نبات ملقى دائمًا بعيدًا .. ثم إلى مكان آخر وألقى فيه .. وكان انتقالنا ليلًا .. لماذا ؟.. لا أعرف .

وعرفت مع الليل المزيد من الخوف .

وقد كان بيتنا فى أطراف القرى .. وقد رأيت الذئاب والثعالب تعتدى على طيورنا ليلًا .. وأحيانًا – سمعت من أمى – اللصوص أيضًا . لقد كنت أحس أننى أتعس حالًا من أبناء الغجر .. فهم قادرون على السطو والسرقة والقتل .. فالناس يخافونهم وهم لا يخافون الناس .. أما نحن فقد كنا وحدنا فى أطراف القرى .. وحدنا فى بيتنا .. هان أمرنا على الناس وعلى الذئاب والكلاب .. ومهما أغلقنا الباب والشباك فنحن فى خوف من أشياء كثيرة .

وحدى .. مع الوحدة المقدسة

.. ..

– وعندما كبرت .. وعندما استقر رأسى على كتفى .. ووجدت ما أملأ به هذا الفراغ .. ووجدت ما يميزنى عن غيرى من الصغار .. عندما تفوقت فى الدراسة .. وعندما حفظت القرآن الكريم، ونظمت الشعر، أحسست أننى أنتسب إلى فصيلة أخرى من الناس إلى طراز يعيش بعيدًا. ومن الخير أن يكونوا كذلك لكى نرى أوضح. ونسمع أصفى. ونفكر أعمق. وليس ذلك سجنًا انفراديًّا. ولكنها العزلة المقدسة .. وعزلة الرهبان فى الأديرة، والعلماء فى المعامل .. والزعامات فى القمم .. عزلة حيوان اللؤلؤ يفرز مادته الفضية وحده بعيدًا عن بقية الكائنات البحرية .. وحدة دودة القز التى تفرز حريرها .. وحدة الجنين فى بطن أمه .. وحدة يوسف فى البئر .. وحدة يونس فى بطن الحوت .. وحدة روبنسون كروزو فى جزيرته .. وحدة النبى فى الغار .. وحدة علماء المراصد يعلقون عيونهم بين النجوم .. وحدة رواد الفضاء .. وحدة الفنان عندما يبدع.

وهناك حكمة تقول: إنه لا يقدر على العزلة الكاملة إلا آلة وحيوان .. ولما قرأها الشاعر الألمانى جيته أكملها هكذا: أو هما

معًا .. أى الإله الحيوان .. أى الإنسان .. العبقرى الذى به قبس من الله .. وبه غرائز الحيوان أيضا .

ويقول الفيلسوف الألمانى شوبنهور : قل لى كم ساعة تجلسها مع نفسك .. أقل لك من أنت .. إن قلت يومًا فى كل يوم .. كنت إلهًا .. وإن قلت نصف يوم من كل يوم ، كنت عبقريًا .. وإن قلت لا يوم ، فأنت حيوان .

قرأتها فقلت : يا أنا .

فنحن أولاد الغجر .. نحن الذى ننتسب إلى نوعية أخرى من الناس . تعيش بعيدًا : لنرى أقرب ، ونسمع أوضح .

نحن سلالة نوح عليه السلام .. إنه بعد (آدم) أبو البشرية كلها .. وهو الذى حمل فى سفينة بدايات الحياة كلها .. من كل زوجين اثنين – كما يقول القرآن الكريم – وكانت سفينة نوح وسط الطوفان خلية معزولة عن الحياة .. ولكن من هذه الخلية المنعزلة راحت الدنيا تعج بالحياة .

المسافات بيننا : نظرية فى الحياة

– .. ..

– من كل ما مر بى .. اهتديت إلى نظرية فلسفية سجلتها فتكون موضوعًا لرسالة دكتوراه فى الفلسفة .. وادخرتها فى كتاب لى

بعنوان .. وداعًا أيها الملل .. أما النظرية فهى : المسافات بيننا .

وقد فسرت كل العلاقات الإنسانية على أنها مسافات قصيرة أو بعيدة بين الناس .. وأننا نحن الذين نجعلها قريبة ونجعلها بعيدة .. فالزمالة والصداقة .. والمودة والحب والعشق والزواج ، والحرية والسجن والإيمان والكفر .. كلها مسافات صغيرة وكبيرة .. وعاودنى هذا المعنى كثيرًا .. ثم اهتديت إلى نظرية فلسفية أُخرى هى : اللمس والتلامس .. والملامسة .. والالتماس .. والالتصاق .. والتجمع .. والتكدس .. والعشق والاحتشاد والمجتمع .. والتجميع والتسهيل والتعويق .. وكلها تفريعات على معنى واحد هو : أن الإنسان يكره أن يلمسه أحد . لذلك فهو حريص على أن يبعد عن الناس ويقترب منهم .. حسب هواه ومصلحته .

ويكون القرب لمسًا .. والبعد تحريجًا .. وفى التاريخ نجد المساس .. واللامساس .. والحلال « هو الذى نلمسه والحرام هو الذى لا نلمسه » .. والقوة أن يتلامس الناس ..

والضعف أن يتفرق الناس .

والجماعة عشرات تلامسوا .

والجماهير ملايين تلامسوا .

والثورة ملايين تلامسوا بالجسد والرأى والهدف .. إلخ .

* * *

– .. ..

– وإذا كان الإنسان الغجرى .. هو الذى يعيش على حافة الحياة المدنية مفضلاً العزلة والوحدة والهدوء والتأمل على أى شىء آخر ، فأنا واحد من هؤلاء .. كنت ولا أزال وأتمنى أن أعيش كذلك .

وكان الفيلسوف أرسطو يصف الله بأنه : هو الذى وحده .. لأنه فى غنى عن غيره .. ويتأمل نفسه .. فلا شىء أعظم منه يصلح أن يتأمله .. وهو الذى لا يرى غير نفسه لأنه ليس هناك من هو أعظم منه فيراه .

وكان الفيلسوف الصوفى الألمانى الهارت يقول : إن الله هو السكون الأبدى .. فالذى يتحرك هو الشىء الأصغر الذى يتحرك فى فراغ أكبر منه .. ولما كان الله يملأ كل شىء .. فهو لا يتحرك .. إنه الكمال الساكن الساكت .

ويقول الفيلسوف الوجودى الأسبانى أورتيجا جاست : عندما أشعر بالجوع فإننى أمد أطرافى إلى الناس .

إننى أصغر منهم وفى حاجة إليهم .. وعندما أفكر فإننى أطوى نفسى على نفسى .. فأنا أقوى من الناس .. وأغنى من الناس .. ولست فى حاجة إلى أحد .. إننى أكبر من كل الناس .. ولذلك فعزلتى هى كمالى .. ووحدتى هى عظيم قدراتى .. وعندما أكون بعيدًا عن الناس أراهم صغارًا .. ويروننى أصغر .. إننا نتبادل السخرية .. هم يسخرون من ضعفى ، وأنا أشك فى قدراتهم .. إننى برغم ضعفى أثيرهم .. ولذلك يحقدون ويسخرون .. وهم برغم قوتهم يكرهون

استخفافى بهم .. ألا ترى أننى وحدى الأقوى والأعظم منهم جميعًا .. إننى أرى ذلك .. تعال وأجلس على مقعدى .. وخذ عينى وأذنى وقلبى وعقلى وقل لى بعد ذلك : أينا أشجع وأروع .

ولذلك فإننى أرى الفيلسوف الأسبانى «آى جاست» زعيم المفكرين الغجر .. شيخ مشايخ قبائل الغجر فى العصر الحديث .

وليس منا من ليس غجريًّا .. إن لم يكن كل الوقت .. فبعض الوقت .. أو يتمنى ذلك .

- .. ..

أخذ وعطاء : مع الأدب

- تسألنى ماذا أخذت وماذا أعطيت من الأدب ؟

- وجوابى أنى نشأت نشأة أدبية ، أو على الأصح لها علاقة بالكلمة الجميلة .. ابتداء من حفظى القرآن الكريم فى السابعة من عمرى .. لا أدعى أننى فهمت ما حفظت ، ولكن من المؤكد أن الموسيقى القرآنية ، وتقويم اللسان قد بدآ فى سن مبكرة .. فإذا أضفت إلى هذا أن أبى كان شاعرًا ، وكنت أردد معه الشعر الصوفى .. ولما اقتربت من العشرين بدأت أنظم الشعر .. وباختصار ، كانت علاقتى بالكلمة مبكرة .. وكان من الصعب أن يتنبأ أحد لهذا الشاب .. أن يكون أديبًا .. تعمد طريق الشعر وحفظه

ونظمه متابعته تحدد مسار حياتى .. والطريق الذى سوف أسلكه .. واعتدت على قراءة الشعر وسماعه .. ولذلك عندما توهمت فى وقت من الأوقات أنى أصلح أن أكون مطربًا .. غنيت بالفعل، وتمنيت أن أكون مطربًا.

ومن الطريف أن الأستاذ محمد عبد الوهاب .. قد روى هذه القصة على مسمع من الوزير صفوت الشريف، وعبد الحميد رضوان، ويوسف إدريس، ونزار قبانى .. وروى كيف ذهبت إليه لكى أسمعه بعض الأغانى.

أعتقد أن هذه الرغبة فى الغناء .. هى رغبة فى الكلام الجميل .. أى أن أستمر فى شكل من أشكال الأدب .. فقد استمتعت بقراءة الأدب ومتابعته .. ولذلك فأنا أقرب إلى الأدب .. أو الأدب الفلسفى منه إلى أى شىء آخر .. وما كتبته هو استمتاع بالأدب الذى أقرأه .. فهى حياة أدبية متصلة.

أما الذى أعطيته فأنا لا أعرف .. كل ما أعرفه أننى أحسست فكتبت .. أو قرأت واستمتعت وحاولت أن أنقل هذه المتعة إلى الآخرين. فالذى أريد أن أعبر عنه .. وتوضيحه .. والتسلل إلى داخله ما زال كثيرًا.

فى السياسة : لست سياسيًّا

.. ..

– بالنسبة للسياسة .. أنا لست سياسيًّا .. ولكنى مشتغل بالفكر السياسى ، وإن كان الإنسان كما يقول أرسطو : حيوان سياسى .. أومشتغل بالسياسة .. أى أن السياسة هى أداة الإنسان .

وقد كانت لى اهتمامات سياسية .. ولكن منذ النكسة أخذت موقفًا إيجابيًّا .. فبعد ٦٧ وجدت أنه من الضرورى أن نعرف حقيقة الصراع العربى الإسرائيلى .. وعكفت على دراسة هذا الصراع تمامًا .. فقرأت عشرات أومئات الكتب عن هذه القضية . وانطلقت أتحدث عنها فى الإذاعة والتليفزيون .. وأقمت معرضًا تنقل بين مختلف المحافظات وبعض العواصم العربية .. هذا المعرض للتعريف بالعدو .. وكانت الحقيقة أمامى بسيطة .. عدونا عرفنا فهزمنا ، أوبعبارة أخرى نحن حاربنا عدوًّا لا نعرفه ، وعندما عرفناه ضربناه فى سنة ١٩٧٣ .

من هنا كان من المحتم علينا أن نعرف عدونا على حقيقته حتى نكون على بينه من هذه المعركة .. أوهذا الصراع .. فكان هذا الاهتمام هو أحد معالم تفكيرى السياسى .. وأصدرت ثلاثة كتب : الحائط ، والدموع ، والصابرا .. الجيل الجديد فى إسرائيل ، وجع فى

قلب إسرائيل.

وفى نفس الوقت عكفت بعمق على إعادة قراءة تاريخنا الوطنى والعربى والقومى ووجدتنى غارقًا فى الفكر السياسى.. ولكن مازالت اهتماماتى أدبية من الطراز الأول.. إن ما أكتبه أنى أقوم بتوظيف اهتمامات كثيرة من أجل توضيح الفكرة السياسية.

ولذلك فإن ما أكتبه هو نوع من تأديب السياسة.

و.. ما كتبه طه حسين والعقاد والدكتور هيكل فى السياسة على الرغم من أن طه حسين والعقاد كليهما أديب فى المقام الأول.. ولكن ما كتباه فى السياسة لا يدخل فى مجال الأدب.. لأن العقاد يكتب سياسة عنيفة، ولكن يصبح العقاد أديبًا.. متأنيًّا ينتقى الكلمات.. وينسج الإطارات المنطقية كما حدث فى سلسلة العبقريات.. فقد كتب عن أفذاذ السياسة، سعد زغلول، وهتلر فى الميزان، ولكن المقالات التى كتبها لمناقشات حول صراعات حزبية لها قيمة من الدرجة الثانية.

ويبدو أن الكثيرين من الأدباء والفلاسفة الذين اشتغلوا بالسياسة رغم استغراق السياسة لهم.. لم ينسوا مهمتهم الأولى.. وهذا واضح فيما كتبه سارتر.. والبير كامى، وكيسنجر.. وهو يعد من أدباء السياسة، وليس من الصدف أن يفوز تشرشل بجائزة نوبل فى الأدب مع أنه زعيم سياسى.. ولو قدمت مذكرات ديجول لفاز بنفس الجائزة.. فى الأدب أيضًا.

فرغم انشغالى بالسياسة، فإن انشغالى الأول هو بالأدب والفلسفة .. وعلم النفس والتاريخ .. فأنا أنتسب إلى أدباء السياسة وليس إلى سياسة الأدب.

العودة إلى الله

- .. .. ؟

- تسألنى إذا ما كنت ما أزال أعتنق الوجودية .. وجوابى أن الفلسفة الوجودية كانت بداية تفكير .. أومنطلق فى الأربعينيات والخمسينيات، ثم أدخلت عليها تعديلات كثيرة .. و.. تغيرت أنا وابتعدت عنها، لكن أفكارها الرئيسية مازالت قوية. وهذا واضح تمامًا فى ثلاثة كتب أصدرتها:

وداعًا أيها الملل.

طلع البدر علينا.

فى صالون العقاد.

وفى صالون العقاد تسجيل تاريخى لجيل من الشباب فى مثل سنى .. تحيروا كثيرًا بين المذاهب الفلسفية والدينية والسياسية وكانوا يدورون فى فلك الأستاذ العقاد .. ثم أخذوا يقتربون، ويبتعدون، ثم يبتعدون نهائيًا .. ومن هذه الدراسات الذاتية، يبدو واضحًا أن الفلسفة الوجودية لها أثر كبير على قلمى .. ويبدو ذلك فى مظاهر القلق ومحاولة الاقتراب من حقائق كثيرة .. كونية ونفسية ..

وإذا كان لابد من إضافة عمق جديد للفلسفة الوجودية، فهو الاشتراكية.

ومن الصعب أن ينشد الإنسان العدل والخير ولا يكون اشتراكيًّا فى فكره.. وواقعه.. فإن مع هذا التغيير، فأنا اشتراكى الواقع.. وجودى المنهج.. وهذا ما حاوله سارتر فى آخر كتاب صدر له (نقد العقل الديالكتيكى) فهو محاولة لعقد زواج كاثوليكى بين الوجودية والاشتراكية.

ولكن هذا التغير يحتاج إلى تصحيح فورًا حتى أبعد عنه.. أو أطرد عنه شبهة رفض الدين أو عدم الإيمان.. وأعتقد اعتقادًا راسخًا أننا الآن أحوج ما نكون فى عصر من العصور إلى العودة إلى الله وإلى فهم الإسلام فهمًا حقيقيًّا.. والتفهم الحقيقى أن نقترب منه بالفعل.. فإذا فعلنا وجدناه صالحًا لمقتضيات العصر.

ويدهشك جدًّا أن تعرف أنى اتفقت مع أحد الناشرين على تأليف كتاب عن الإمام ابن تيمية، أو بعبارة أخرى لتوضيح فكر هذا الإمام فى شرح مبادئ الشريعة الإسلامية شرحًا عصريًّا.

فقد وقع كثيرون فى الخطأ عندما قرأوا ابن تيمية ولم يفهموه.. واقتطعوا من فلسفته الشاسعة العميقة، الكثير من الآراء التى تتنافى معهم.. فهو عقلية موسوعة نادرة فى تاريخ الفكر الإسلامى.. ويستطيع أى إنسان أن يخرج بما شاء من فهم للدنيا والآخرة وهو بذلك شخصية فذة، تغرى أى مفكر أن يجرب حظه معه.. وسوف

أفعل ذلك إن شاء الله.

وينتهي حواري معه بهذا السؤال:

– هل يمكن أن تعيش من قلمك فقط.. بدون العمل؟

وبسرعة يجيب:

– هذه مشكلة كل الكتاب، لأنه لا يزال من الصعب أن يعيش الكاتب من قلمه لأن الكتب لا تعود عليه بما يكفيه، لأنه ما زال نصيب المؤلف من الكتب مهما كثرت قليل، ولذلك لا تجد في مصر كاتبًا واحدًا عاش من كتبه، حتى الأستاذ العقاد.. فقد كان بجانب دخله من الكتابة.. يعيش على المكافآت التي يتقاضاها عن أعمال أخرى.. فالكتاب وحده لا يكفي أن يعيش من إيراده كاتب.

***

.. و.. وتمضي عدة ساعات في حوار مع أنيس منصور الفيلسوف الأديب.. وأشعر أنني اقتحمت عليه خلوته.. وهو يعد نفسه للسفر بعد ساعات إلى الولايات المتحدة.. وترتسم في ذهني علامة استفهام كبيرة وأنا في طريقي إلى الخروج بعد هذا الحوار الممتع.

رحلة شاعر يكتب بالرسم

* إنه رجل كل الفنون .. إنه رسام يكتب بالريشة .. وشاعر يرسم بالكلمات .. وموسيقار يعزف للإنسان .. والحب .. والحياة .. إنه عالم قائم بذاته .. فى أغواره تتجمع كل الألوان .. وتمتزج الفنون من خلال تعبيراته بالرسم والكلمة والنغم .

وقد تبدو محاولة الاقتراب إلى أعماقه مثل راكب زورق صغير يحاول اكتشاف قارة واسعة وسط أمواج المحيط ورياح الزمن .. وعمق التجربة .

ومن هنا كانت الحيرة فى محاولة الدخول إلى عالم حسين بيكار .. فالرجل متعدد الجوانب .. فهو فنان تشكيلى .. وهو شاعر .. وهو موسيقار .. وهو أديب .. وهو كاتب قصة للأطفال .

ولو كان الأمر مجرد إلقاء أسئلة لهان الأمر.. فما أسهل الأسئلة .. ولكن الصعوبة هي في توظيف هذه الأسئلة لتخرج بإطار عام.. أوصورة مكبرة لعالم هذا الفنان!

ينابيع الطفولة

* حيرني سؤالك.. فهو سؤال عام.. من الصعب على أي إنسان أن يعطي صورة كاملة عما تركته الطفولة من آثار في حياته.. فالطفولة هي الينابيع الأولى بلا شك التي يستمد منها الفنان الكثير من ملامح شخصيته.. ولكن ما أكثر الصور التي يمكن أن تتداعى للذهن لما تركته الطفولة من آثار.

فالمسيرات الأولى في حياة الطفل، هي التي تحدد مساره لا إراديًا.. فالإنسان الذي تصادفه في حياته أشياء عشوائية، قد تكون سببًا في تغيير نمط حياته.

* من حيث هواية الرسم: كانت هناك مجموعة عوامل هي التي أثرت موهبتي – كان يمكن أن تسمى موهبة – مثلاً تفتحت عيني في حارة الأنفوشي حيث ولدت على صور متعددة.. رأيت خواجه يرسم الحي الذي نعيش فيه.. ظللت ألازمه وأنا أتفرج على رسوماته.. وارتسمت في ذهني علامة استفهام كبيرة.. كيف يتحول الحي إلى لوحة.. كيف ينقل الواقع إلى صورة.. وكان ذلك شيئًا

مثيرًا بالنسبة لعين الطفل.. كنت فى مرحلة انبهار.

ومرة أخرى أتذكر أن هناك قوة بجانب منزلنا.. وكان هناك فنان تركى زائر إلى مصر.. أحضر طبقًا وشمعة.. أضاء الشمعة.. وجعل هباب دخانها يملأ الطبق الذى تحول إلى اللون الأسود.. وعلى الهباب رسم صورة لخيول.. أى أنه من هذه الأدوات.. الطبق.. الشمعة.. علبة الكبريت.. كون لوحة رائعة أشبه بالسحر.. أشياء صغيرة خلق منها عمل فنى.. بجانب هذه المشاهدات واللوحات التى رأيتها.. فنرى الصور الزيتية الموجودة التى ترى فيها مستنسخات الصور القديمة.. كانت كل هذه الأشياء تبهر عين الطفل.. بدأت تنبه فى داخله ضحكات الطفل.

وأنا أقول: إن كل طفل فيه كل الملكات.. وليست مقصورة على طفل دون طفل.

وأنا لم أكن طفلًا موهوبًا.. ولكننى أخذت أحاول.. وأخذت أهتم بالرسم فى المدرسة أكثر من اهتمامى بالعلوم الأخرى.. ورأيت تشجيعًا فى المدرسة.

و.. هناك جملة ظواهر.. كان لنا جيران من الأتراك.. وكانوا فى وقت فراغهم يطبعون وجوه (الألحفة) ويلونونها بألوان جميلة.. وكان ذلك ينبه الملكات الكامنة فى الطفل.. هذا هو الوسط الذى بدأ يحرك لدى حب الرسم.. ومن يومها استمررت فى هذه العملية.. وهى التى حددت مصيرى.

* من ناحية الموسيقى: وأنا في الثامنة من عمرى تفتحت عيناى على آلة العود فى المنزل.. وكان هناك مدرس يعلم أختى لأنه كان من العادات فى هذا الوقت أن تعتنى الأسر بالفتاة من ناحية تثقيفها.. وتعليمها بعض الأشياء التى تعطيها قيمة كزوجة.. وشدنى العود.. وأخذت أعزف عليه.. وبرعت فى عزفه وأنا فى سن صغيرة.

كل هذه كانت بدايات.. من أجل هذا، كان الرسم والموسيقى هوايتين بدأتا معًا.. واستمرتا معًا.. ولكن القرار الأخير هو هذا التساؤل الذى برز فى ذهنى هل أكون موسيقيًا أو فنانًا تشكيليًا؟ إن الصدفة هنا كان لها دور كبير فى هذه العملية.

الصدفة فى حياتى

* هذه الصدفة.. لها قصة.. فقد انتقلت مع عائلتى إلى أسيوط.. تصادف وجود صديق زائر لإحدى العائلات التى نعرفها.. شاهدنى وأنا أرسم.. وسر برسمى، وسألنى: لماذا لا تدخل مدرسة الفنون الجميلة؟.. وكانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها عن هذا المعهد.. وكان قد فتح حديثًا.. وشجعنى بالفعل هذا الصديق الزائر أن أدخل الفنون الجميلة.. وكنت من أوائل الذين دخلوا هذا المعهد الذى خضع لوزارة المعارف بعد ذلك.. ولولا زيارة هذا الصديق.. ما كنت دخلت هذا المعهد.. لكنها الصدف التى تفرض نفسها وتحدد مصير الإنسان.

وحدة كل الفنون

- .. ..

- ليس هناك فنون .. ولكن هناك فن واحد .. ولكن له نوافذ مختلفة .. فالتصوير هو نغم بالشكل واللون.

والموسيقى هى صور بالصوت والأنغام .. الكتابة والشعر كذلك ..

فكل الفنون شيء واحد يعبر عنه بوسائط مختلفة .. لذلك نرى أن الإصطلاحات الفنية واحدة. فكلمة إيقاع موجودة فى الشعر والموسيقى والهرمونى. والبناء موجود فى الأدب والموسيقى .. فكل المصطلحات الفنية واحدة .. ولكن (المديام) مختلف .. يعنى كما يوجد سلم موسيقى من سبعة مركبات .. يوجد سلم فى الألوان، والموسيقى هذا صوت .. وهذا لون.

لست مغامرًا فى الفن

- .. .. ؟

- الواقع أن الشخصية والتربية المنزلية والوسط المحيط بالإنسان، يكون له تأثير فى الفكر الفنى والإنتاج.

وأنا أقولها بصراحة .. طول عمرى .. وأنا طفل .. لم أكن طفلاً

مغامرًا .. كما نشأت على الأدب والسلوك المحافظ .. وكانت هناك صراحة فى التوجيه المنزلى .. من أجل هذا لم تكن فى حياتى الفنية عنصر المغامرة .. حياتى فيها التمسك بالتقاليد والقيم التى نشأت عليها .. وهذا جعلنى لست مغامرًا فى الفن .. ولكن لم أكن ضد المغامرة .. فقد كنت أشجع عليها الطلبة عندما كنت مدرسًا .. ولكنى شخصيًّا لم أكن عندى الاستعداد للمغامرة الفنية .. وهذا ما وضعنى فى جانب الفنانين المحافظين .. ولكن قدرى كان ينزعنى من هذا .. ويجعلنى أضطر للمغامرة فى مجالات مختلفة.

غامرت عندما عملت فى الصحافة .. فقد جعلتنى الظروف أدخل فى مجال الصحافة وأنا ما زلت طالبًا .. وكنت أرسم فى مجلة (الصرخة) .. ثم بدأت العمل بعد ذلك فى أخبار اليوم.

وغامرت عندما دخلت فى مجال الكتابة عندما عدت من المغرب .. وطلبت مِنى دار المعارف أن أرسم صورًا لكتاب الأيام للدكتور طه حسين .. كما رسمت غلافه ورسوماته الداخلية .. وغامرت عندما كتبت فى أدب الأطفال .. ورسمت للطفل .. وكل هذا كان يفرض على، ولكن والحمد لله كنت أحاول أن أتقن هذه الأعمال .. وأن أفتح مجالاً للآخرين فى هذه الميادين.

وقد غامرت أيضًا عندما طلب منى مصطفى أمين العمل معه، ثم طلب منى على أمين الاستقالة من رئاسة القسم فى الكلية للتفرغ للأخبار .. وقبلت المغامرة، .. وقدمنا أشياء جديدة فى

الريبورتاجات المصورة .. إنها مغامرة غير مقصودة .

وهناك مغامرة جديدة تمامًا قمت بها ، وهى عمل فيلم تسجيلى كامل عن (أبى سمبل) وهى المرة الأولى التى قمت بها فى مثل هذا العمل .. وكانت تجربة ناجحة جدًّا .

و .. هذا التشتت والتنويع عملية جميلة جدًّا ، إنها تشبه عملية تذوق الطعام .. تذوق أطعمة مختلفة .. وإن كانت كل واحدة تحتاج إلى تفرغ كامل .. ولكن الذى أسعدنى ويسعدنى ، أن هذه الاهتمامات المختلفة كانت فتحًا لطريق جديد يسلكه من بعدنا أجيال جديدة .

- .. ..؟

- أما من حيث الأسلوب الفنى .. فقد كنت أنمو وأتحرك ولم يكن التطور طفرة كما يحدث عند بعض الزملاء .. أسلوبى ليس فيه طفرات المغامرين .. ولذلك احتفظت للآن ومازلت أرسم « البرتريه » الذى تأثرت به من أستاذى أحمد صبرى .. وأحببته .. حتى أنهم يقولون عنى : إننى ورثته فى هذا المجال .. وليس معنى هذا أننى لم أطرق ميادين جديدة .. ولكن عن طريق التجربة وهذا لم يحولنى من مذهب إلى مذهب .

أرسم بلا قيود

* .. .. ؟

– تسألنى أن كنت أرسم من خلال مذهب فنى معين .. وقطعًا بتعدد الفنانين تتعدد كل وسائل التعبير .. وأى فنان لابد أن ينتمى إلى مذهب فنى معين .. ولكن هناك بعض الفنانين (يتقولبون) .. أى يضعون أنفسهم فى قالب .. ويصبح المذهب قيدًا .. ولكن لو ترك نفسه على طبيعته بلا ادعاء، لأصبح هو نفسه مذهبًا .. أو اتجاهًا خاصًا .. لأن الإنسان لا يمكن أن ينعزل .. فكل الترسبات ستجعل منه فنانًا له نوعية خاصة .. ولكن فى النهاية سوف يتقولب، إلا إذا كان هو نفسه قاصدًا أن يحدد نفسه .. كنوع من الإيمان بهذا المذهب إذا سميناه مذهبًا وهذا موضوع آخر فالمسألة نسبية .. فالشخصية نسيج، أطرافه لها أصول مختلفة، ولكن فى النهاية تكون لنفسها شخصية منفردة .. إلا العباقرة فهم يكسرون كل القوانين. فهم عالم جديد تمامًا ..

الفن .. والحياة

* .. .. ؟

– الفن ليس مجرد تعويض عما فى الحياة من عدم التوازن .. هذا رأى لا أقره .. ولكن الفن باق بقاء الحياة .. الفن ينقل الإنسان من بهيميته الأولى إلى مرحلة أرقى .. ورحلة التحول من الأدنى إلى الأعلى عملية فنية .. والمرادف لتطور الحياة هو الفن .. فأى نشاط من الأنشطة عندما يرقى نسميه فنًا .. إذا ضربت مثلا بالجراحة .. فهناك الجراحة التى يمكن أن يجريها الطبيب .. ومن الأطباء من يرتفع بهذه الجراحة إلى مستوى الفن .. أى إلى مستوى أعلى .. فكل مهنة تتحول إلى فن مع التجويد المستمر.

والفن الذى نتحدث عنه الآن .. فن التعبير عن الذات .. أو فن تجميل الحياة .. فالحياة طبعًا محتاجة إلى أن تجمل وتتحسن باستمرار .. والفنان يضع لمسته .. وهناك باستمرار قوالب جديدة .. وتطور دائم .. فالعربة الكارو تتحول إلى صاروخ .. والكوخ إلى ناطحة سحاب.

هذا فى مجال تجميل الحياة.

أما عن طريق تجميل الذات .. فالتعبير عن الذات أرقى منه .. وأرفع أسلوبًا.

ولو نظرنا مثلا إلى الشعر وهو تعبير عن الحياة النفسية .. ولكن بلغة رقيقة .. وكذلك الأدب .

فكل الفنون ضرورة حياتيه تفرض نفسها .. أما كلمة تعويض فليست مناسبة .. فمادام الإنسان يعيش فهو يحتاج للفن كالماء والهواء والطعام تمامًا .. وهذا ما نراه حتى فى السلوك العادى .. فنرى الإنسان وهو يتحدث ، يحاول أن ينقل ما بداخله من المعانى إلى محدثه .. عن طريق تخير الألفاظ والإيماءات .. و .. كلها وسائل تعبير مختلفة يستعين بها المتحدث لتجسيد الأحاسيس الداخلية لتصل إلى الغير .. هذا فى الكلام العادى .. إن الفنان يتولى عن الإنسان العادى هذه المأمورية .. كالمحامى الذى نكلفه أن يدافع عن قضايانا الخاصة .. لأن الفنان لديه الإمكانات المدربة والاستعداد الذاتى أن يتحدث بناء عنا .. فالفنانون هم أصوات الناس .

* * *

* .. .. ؟

– طبعًا أنا مع جان كوكتو .. الشعر ضرورة نعم .. ولكن لا أعرف لماذا على حد تعبيره أيضًا – يمكن أن يكون محقًا .. إننا عندما نشعر بالجوع نأكل .. وهناك جوع تعبيرى .. وعن طريق الفن الرفيع نحقق الإشباع الفنى .

الموسيقى .. إلى أين ؟

* .. .. ؟

– إنك تطرح قضية حول الموسيقى العربية .. وهل يمكن أن نظل نأخذ ملامحها الشرقية ، أو لابد أن نطعم بالموسيقى الغربية .. وأنا أقول : إن لكل إقليم شخصية .. لقد خلق الله الأوربى أبيض البشرة ، والأفريقى أسوف البشرة والصينى أصفر البشرة .. كما أن لكل شعب لغته الخاصة به .. وكان هناك طبائع تشريحية . وكذلك الفنون .. فكما أن النبات لكى ينمو ويترعرع لابد له من بنية معينة ومناخ معين .. وظروف معينة لتلائم النمو .. كذلك الفنون .. لكل بيئة فن خاص له مميزات خاصة .

ولكن ليس معنى ذلك أن يكون فنًّا مغلقًا وإلا أصيب بالعقم .. فالزواج والتصاهر بين البيئات المختلفة يثرى المجتمعات المتزاوجة بحيث لا تذوب فى بعضها .. كما أن الحضارة اليونانية أخذت من الحضارة الهيلينية .. ولكن لا ينبغى أن تذوب حضارة فى حضارة . ونحن الآن معرضون لطوفان التيار الغربى .. وهذا لا يمكن إنكاره .. ونحن أغلقنا على أنفسنا فترة طويلة .. ولكن ليس معنى ذلك أن نصاب بالتخلف .. ولكن يجب أن نستفيد من خبرات الغرب ، ونحافظ فى نفس الوقت على تراثنا .

والفنان المعاصر .. عليه أن يعرف التراث .. وأن يحقق ذاته .. ويعيش عصره .. دون الانفصال عن جذوره .

بسرعة مع بيكار

* أنا لم أحقق شيئًا .. وليس هذا تواضعًا لأن المحاولة شيء والتحقيق شيء آخر .. ولكن ما قمت به هو فتح طريق ..

* أنا أرفض أن أعيش فى جزيرة معزولة كروبنسون كروزو .. ولكن أفضل أن أعيش على سفينة نوح .. فيها كل الألوان والأجناس .

* لو ركبت سفينة هـ. جـ. ويلز الخيالية التى تطوف بالإنسان عبر الماضى والمستقبل ، لأختار زمانًا أعيش فيه غير زمانى هذا ، فسوف أختار أن أعيش عصر الرومانسية .. فأنا مازلت انبهر بالتاريخ أكثر من الحاضر .. فوسائل الراحة والرفاهية فى عصرنا .. هى وسائل القلق والتوتر والحيرة .. العصور القديمة كانت مستقرة فى فكرها وفلسفاتها .. حتى الولادة الفنية فى عصرنا هذه ولادة عسرة .. بينما فى الماضى كانت الولادة الفنية طبيعية .. والذى لا يضيف جديدًا الآن يسمى متخلفًا .. وهذه العقدة .. عقدة البحث عن الجديد أصبحت مقلقة جدًّا للفنان ..

سؤال : من أنا ؟

* إنسان يحب أنواعًا مختلفة من الفن .. وهذا يجعل الإنسان أكثر انتشارًا .. ولو كان على حساب الفن .. وأنا لا أريد أن أكون عبقريًّا فى فن واحد .. ولكن أريد أن أتذوق كل الفنون .

و .. ينتهى الحوار .. بعد ساعات .. ومع ذلك ظلت علامات الاستفهام الحائرة تقفز أمام مخيلتى .. هل استطعت أن أصل إلى أعماق الفنان .. أم أن هذا هو المستحيل بعينه ؟ لقد انتابتنى عذابات سيزيف وهو يحاول أن يستقر نفسًا وهو يصعد ويهبط الجبل حاملا الصخرة فى عذابه الأبدى .

ويظل البحث عن حقيقة الفنان فى حاجة إلى مصباح ديوجين .. لعله يقترب منها .. أو يشير إليها مجرد إشارة .. إشارة أصبع من بعيد .

ورثت من طفولتي القلق والمخاوف

زكي نجيب محمود

* الدكتور زكى نجيب محمود ليس مجرد كاتب كبير .. أو أستاذ ترك بصماته فى عالم الفلسفة .. أو أديب وناقد ممتاز له آثاره الواضحة فى حياتنا الثقافية .. أو حتى عالم من العلماء الذين تعتز بهم مصر بما قدم من نتاج فكرى على مستوى رفيع .. ولكنه بجانب كل ذلك من النماذج العلمية التى يصعب تكرارها .

فالرجل عملاق من عمالقة الفكر .. وله ٤٧ كتابًا .. وكل كتاب منها دراسة واعية مستنيرة وعميقة لمشكلة من مشاكل الفكر أو العلم أو الأدب أو الفلسفة .

وقد أثار الدكتور زكى نجيب بكتاباته العديد من المعارك الفكرية.

فقد هاجمه البعض عندما نادى بالوصفية الفلسفية.. فماذا تقول هذه الفلسفة ولماذا حاربها البعض؟.

وله رأى فى التراث.. ما يجب أن نأخذ منه.. وما يجب أن ندع.. سؤال هام يحتاج إلى إجابة.. وما أكثر القضايا الفكرية التى يمكن أن تثار.. مع كاتب بحجم وثقل «الدكتور زكى نجيب محمود».

ولم يكن هذا الحوار مع مفكرنا الكاتب الكبير مجرد محاولة للإجابة على بعض علامات الاستفهام التى تدور فى الذهن حول قضايا الفكر والأدب والحياة، بقدر ما هى محاولة لتقريب فكر كاتبنا الكبير إلى القراء.. وإلقاء الضوء على شخصيته.. والخيوط التى رسمت ملامحها الرئيسية فى الطفولة.. حيث تتكون الخطوط الرئيسية لشخصية أى إنسان.

الشباب ومجاهداته وتطلعاته.

والشيخوخة فى هدوئها وعطائها.. وابتدأ الحوار:

طفولتى:

أولا أنا لا أظن أننى عشت طفولة من النوع الذى نراه اليوم بين أطفال الأسرة أو الأقارب أو الأعداء.. فأطفال اليوم يلقون

من ضروب الرعاية والعناية والمعاملة التى تعترف بأنهم أطفال.. أقول كل هذا الذى نشاهده اليوم لم ننعم به نحن فى جيلنا .. أو على الأقل أنا اتحدث عن شخصى .. مثلا أظن أننى ، أعطيت من اللعب ما ألهو به فى طفولتى .. ولا عوملت من ناحية الوالد والوالدة على أساس أننى طفل.

إنما كانت المعاملة تفترض فى الطفل الذى لم يجاوز عمره ثلاثة أعوام .. أنه رجل مكتمل .. يتوقعون منه الإجابة الصحيحة على الأسئلة التى تلقى عليه ، ويتوقعون منه أن يوكل إليه ببعض المهام كشراء أشياء من الدكاكين القريبة من المنزل .. أو تبليغ رسائل شفوية إلى أقارب أو أصدقاء الأسرة .. ولذلك كان الوقوع فى الخطأ من ناحيتى كثير الحدوث ، فكم من مرة لم استطع أن أجيب على أسئلة توجه إلى ، فأعاقب أمام الضيوف ، وكم من مرة لا أوفق فى شراء ما يرسلوننى لأشتريه فأعاقب .. وكم من مرة يروننى ألعب مع أطفال الجيران فأعاقب .. وهكذا .. مما ترك فى نفسى عدة نتائج خطيرة على بناء شخصيتى .. ولم أكن بالطبع أدرك هذه الخطورة إلا عندما كبرت .. واستطعت استبطان شخصيتى من الداخل .. وتعقب الأسباب التى أدت إلى الظواهر التى ألاحظها فى طوية نفسى .. ومنها :

* الخجل الشديد .. والحساسية الشديدة .. والرغبة فى الانطواء .. والتوارى .. والقلق بصفة عامة .. ثم الخوف

مما لا يستدعي خوفًا.. وربما أيضًا التهوين من قيمة ماأعمله.

فتراني لا أدهش إذا وجه إلى نقد.. ولكنني أدهش كلما سمعت شيئًا من الإعجاب بما كتبته أو أنجزته.. وذلك لأنني منذ البداية.. لا أبالغ في تقدير ما أعمله.. وهكذا.. وهكذا.. مما تأباه التربية السليمة للشخصية السوية.. ولعلي أريد بهذا الذي أقوله عن نفسي: أن أوجه نظر الآباء والأمهات نحو ضرورة معاملة الطفل على أساس أنه طفل.. له فطرة الطفولة.. دون محاولة استباق الزمن، ومطالبة الطفل بما يعجز عنه.. فيزرع فيه مركب نقص قد لا يستطيع بعد ذلك أن يقاومه.. أو يتغلب عليه.

الهوايات في حياتي:

* لا أذكر أن دخلت في حياتي هواية استأثرت بنشاطي.. بل كانت كلها أمورًا لا تلبث أن تختفي.. فقد لعبت الكرة، ولعبت الطاولة.. ولعبت الورق مع الأصدقاء.. ولعبت الدومينو.. ولكنني كنت في كل هذه الألعاب لا أتعلق بها تعلق الهواية.. ولعل هوايتي الوحيدة التي دامت معي هي القراءة والرغبة في التعبير عن نفسي بالكتابة.. سواء نشر هذا المكتوب أو لم ينشر.. لأنني بدأت في مثل هذا التعبير.. منذ كنت في الثامنة أو التاسعة على الأكثر من عمري.

ولكن لم أجد من المحيطين بي إلا السخرية.. ولم أجد كلمة

تشجيع واحدة .. لا فى الطفولة .. ولا فى معظم أعوام الشباب .. ولذلك ترانى حتى يومى هذا .. على كثرة ما كتبته ونشرته .. أعتقد دائما .. عقيدة راسخة بأن أحدًا لن يقرأ ما أكتبه .. ولم يحدث لى قط أن كتبت شيئًا ونشرته، ثم توهمت أنه سيحدث ضجة أو رد فعل .. أو ردودًا من القراء أو غير ذلك، ليقينى بأننى أكتب لغير قارئ .. ولكن هى الرغبة فى التعبير عما يدور بنفسى وفى خاطرى .. بالطبع هذا الموقف هو نتيجة عدم مبالاة من أحاطوا بى وأنا طفل، ثم وأنا مراهق بما كنت أعمله .. بل هو أكثر من عدم المبالاة لأنه بلغ حد الهزء والضحك.

علاقتى بالأدب والفلسفة:

* أولا أريد أن أقول: إن صلتى بالتعبير الأدبى من جهة وبالفكر الفلسفى من جهة أخرى .. هى حالة شخصية بحتة .. لأن هذين النوعين من النشاط الوجدانى والعقلى .. قد لا يجتمعان عند معظم الناس .. فأكثر الأدباء فى تاريخ الأدب كله، لم يكونوا ذوى نزعة فلسفية .. كما أن أكثر الفلاسفة فى تاريخ الفلسفة كله .. لم يكونوا ذوى قدرة على التعبير الأدبى. أو رغبة فى تذوق الأدب الذى ينتجه الآخرون .. لكن اجتماع هذين النوعين فى شخص واحد أمر ممكن، ويحدث وقد حدث بالفعل لكثيرين.

فمثلا أفلاطون .. شيخ الفلاسفة .. كان أديبًا عندما صاغ

فلسفته فى أسلوب الحوار.

وابن طفيل .. كان أديبًا عندما وضع فلسفته فى قصة حب ابن يقظان ..

وجان بول سارتر كان أديبًا عندما جسد بعض أفكاره الفلسفية فى مسرحيات، وهكذا.

وتسألنى بعد ذلك: هل هنالك علاقة بين الأدب والفلسفة؟ فأقول:

* إن الأساس الإدراكى لكل من هذين النوعين، يختلف عنه فى النوع الآخر .. وذلك لأن الإدراك الفلسفى قائم على منطق مجرد .. لأنه تحليلى فى طبيعته .. ويحاول استخراج المبادئ النظرية الكامنة فى ثقافات الناس، وعلومهم وأخلاقهم وأذواقهم .. وهكذا .. إذ ماذا يصنع الفيلسوف فى أى عصر من العصور سوى أنه يحاول أن يستقطب كل النشاط العقلى والفنى فى عصره .. لعله يجد الفكرة الواحدة الكبيرة .. أو المبدأ الوحيد الذى يضم بين جناحيه هذا النشاط كله .. فالأساس الإدراكى إذن فى مجال الفكر الفلسفى قائم على منطق عقلى صرف.

وأما الأساس الإدراكى فى الإبداع الأدبى، فعلى عكس ذلك تمامًا .. لأنه قائم على مشاهدة السلوك .. الذى يتفاعل به الناس بعضهم مع بعض، كما يشاهد الدلائل التى تنم عن مجرى الشعور الداخلى .. عند أفراد الناس المختلفين.

خذ شكسبير مثلا .. تجده قد صور أنماطًا بشرية عديدة .. منهم الملوك والفرسان .. والمهرجون والتجار .. والعاشقون .. وغير ذلك .. فبديهى أنه لم يكن ليستطيع تصوير هذه الأنماط المختلفة ، إلا إذا كانت له القدرة على النفاذ من خلال السلوك الظاهر .. إلى مصادر ذلك السلوك فى دخائل النفوس .. ويترتب على هذا النوع من الإدراك .. إنه إدراك يقف عند الفرد الواحد .. أو عند الحالة الجزئية الواحدة .. أى أنه لا ينشد التعميم المجرد.

وهكذا ترى .. أنه بينما تعمد الفلسفة إلى الوصول إلى الأحكام العامة التى تجاوز الأفراد والجزئيات ، فإن الأدب ينحصر فى تصوير الفرد الواحد .. والجزئية الواحدة .. إنه مثلا لا يقول لنا . إن العاشق بصفة عامة هو كذا وكذا .. إنما يصور لنا روميو .. أى يصور عاشقًا فردًا .. فى حبه المتفرد .. الذى قد لا يتكرر فى سواه ..

هكذا نرى أنه من حيث الأساس ، فالفلسفة والأدب مختلفان منهجًا وهدفًا . لكن هنالك نقطة التقاء قد تتحقق فى بعض الفلاسفة الأدباء ، أو الأدباء الفلاسفة ، وذلك عندما يجعل الفيلسوف خبرته الشخصية أساسًا لحكمته .. والحكمة هى نوع من النظر الفلسفى .. ومن أمثلة ذلك أبو العلاء المعرى .. وحكماء الشرق الأقصى بصفة خاصة مثل كونفشيوس .. وبوذا .. فهاهنا نجد الثمرة الناتجة مزيجًا من الشعور الوجدانى .. والحكمة التى تعم الأحكام.

التراث .. وكيف ننقيه ؟

هنالك فرق بين دراسة التراث من جهة ، وسريانه فى شرايين ثقافتنا الحالية من جهة أخرى .

فالدارسون يدرسون التراث كله .. بغير شك .. كما يدرس علماء الآثار كل ما يجدون من آثار حتى الإناء الخزفى المحطم يدرسونه .. ولكن السؤال بعد ذلك هو : هل يدخل من تلك الدراسة شيء فى حياتنا الفعلية الحاضرة .. بحيث نجعله جزءًا من الخلفية الشعورية والفكرية التى نبنى سلوكنا على أساسها ؟

الجواب عندى هو أننا لا يجوز أن ندخل فى هذه الخلفية الوجدانية والفكرية التى نلتزم بها كمنبع لحياتنا العملية إلا ما نرى أنه ذو صلة حيوية بما يقع لنا من المشكلات مادية أو عقلية أو نفسية فى زماننا الحاضر .

فافرض مثلا أننا نريد فى عصرنا أن نتميز بنوع من الإدراك الدينى حتى لا ننجرف فى المغالاة الموجودة فى أوربا وأمريكا نحو الواقع المحسوس المادى .. فهاهنا أقول : إنه من الخير أن نشيع بين الناس أنواعًا من الكتابات التى تركها أباؤنا فى تقوية الرؤيا الروحية . وإذن فهذا نوع من التراث يمكن أن يجرى فى دمائنا اليوم ، ونجنى منه ما نريد ، نجنيه من بناء شخصيتنا الجديدة .

ولكن خذ مثلا آخر .. فقد احتدم الخلاف بين الأقدمين على

مسألة هل القرآن أزلى أم أنه حادث .. بمعنى هل هو أزلى مع الله سبحانه وتعالى بحروفه وكلماته وهكذا ، أم أنه خلق عندما نزل على محمد عليه الصلاة والسلام .. فإزاء هذا السؤال انقسم المفكرون والفقهاء قسمين :

بعضهم يقول : إنه أزلى مع الخالق جل وعلا لأنه كلام الله وكلام الله موجود مع الله منذ الأزل .

وفريق آخر يقول : إنه كان موجودًا بمعانيه .. ولكن لا بكلماته وحروفه العربية التى نزل بها ، ولكن الصورة المعنية التى نزل بها حادثة .

أى أنها خلقت ساعة حدوثه .

فهل نتصور أن مشكلة كهذه كانت سببًا فى تعذيب وسجن فقهاء من أكبر الفقهاء إذا كانوا يقولون رأيًا يختلف مع رأى الخليفة ؟ ومن قبيل ذلك محنة الإمام ابن حنبل .. لأن ابن حنبل كان يرى أن القرآن أزلى ، والخليفة عندئذ يرى أنه مخلوق ساعة نزوله .. فلقى ابن حنبل ما لقيه من تعذيب ليغير رأيه .. وكلما أمعن فى الرفض ، أمعنت السلطة فى إنزال التعذيب به .. بلا رحمة .

وأنا أسأل الآن هل المشكلة كهذه تؤرق أحدًا منا اليوم ؟

والإجابة عندى بالنفى .

فلا أظن أن بيننا من تؤرقه هذه المشكلة ، وإنما نكتفى بدراستها فى الجامعات .. كصفحة من صفحات التاريخ الفكرى فقط ..

هذا هو ما أعنيه عندما أقول : إن هناك من التراث جوانب تغذى حياتنا الحاضرة ، وهنالك جوانب أخرى يجب أن تقتصر على الدارسين وحدهم لأنها لا تمس مشكلاتنا العقلية فى شيء .

الروح .. والحضارة :

* قلت له كتبت مقالا تقول فيه : إن مهمة الشرق أن يعطى الحضارة الغربية .. القيم الروحية .. فهل يقبل الغرب الأكثر حضارة فكرًا من حضارة أقل ؟ .

- كانت فكرتى التى عرضتها هى أن الفلسفة الأوربية والأمريكية اليوم .. بكافة تياراتها ومذاهبها تحصر نفسها فى الإنسان وحياته على الأرض .. مستغنية بذلك عن كل ما يجاوز الواقع الوجودى الفعلى .. ولكن المصرى بصفة خاصة لا يستطيع أن يقف هذه الوقفة الدنيوية وهو مطمئن .. ويحس شيئًا فى نفسه يدعوه إلى إضافة بعد آخر إلى الصورة الدنيوية .. بأن يجعل على الأقل بعض الأحداث - إن لم يكن كلها - مركزًا فى نهاية الأمر على مصدر خارج حدود الواقع الدنيوى .. ومثل هذه النظرة الروحية التى تضيف الغيب إلى الشهادة فى حياة الإنسان .. تعطينا حياة أكثر اطمئنانًا .. وتنجينا من القلق الذى يصاب به الغرب من حضارته ، فما المانع أن نعرض بكل قوتنا هذه النظرة التى تجمع ما وراء الواقع إلى الواقع .. بحيث نجعل للواقع مجالا ولما هو وراء الواقع مجالا ؟ .

أقول .. ما المانع فى عرض هذه النظرة على أهل الحضارة الراهنة فى الغرب .. لعلنا نؤدى بذلك دورًا فيه ثقافة العصر .. هذا ما قلته.

* وتسألنى الآن قائلا: ولكن هل يتقبل الغرب هنا ما نعرضه عليه باعتباره هو الأعليحضارة ؟.

وجوابى على ذلك: أن صاحب الفكرة ما عليه إلا أن يعرضها ليأخذها من يأخذها ويتركها من يتركها.

موقع الأدب العربى من خريطة الأدب العالمى:

* وأسأله: عن موقع أدبنا من الآداب العالمية فيقول:

- منذ دخلت القصة والمسرحية فى أدبنا، وهذا شىء جديد على الأدب العربى.. انفتح الطريق أمامنا لنتسلل إلى القارئ فى الغرب، لأن القصة والمسرحية نوع من الأدب هو محلى بطبيعته.. يعنى الأديب المصرى يضع حياة المصرى لا حياة الإنجليزى أو الفرنسى أو الأمريكى.. والقارئ الغربى يهمه أن يقرأ أدبًا يعرض أمامه نماذج حياة.. من هنا ومن هناك على شرط أن يكون هذا الأدب المحلى منطويًا على أساس إنسانى عام.. وبحمد الله نلاحظ أن عددًا كبيرًا من إنتاج كبار أدبائنا فى مجال القصة والمسرحية بصفة خاصة بدأ يطرق الأبواب فى أوربا وأمريكا. لا سيما بعد أن كثرت فى الجامعات هناك الأقسام التى تتخصص فى دراسات الشرق الأوسط.

أما الشعر، وأما الفكر الذى ينتجه الشاعر أو المفكر المصرى، فلا أظن أن أمامه فرصة الوصول إلى القارئ فى الخارج وذلك لصعوبة ترجمة الشعر أو لاستحالة هذه الترجمة.. ثم بالنسبة للفكر يتعذر على الحضارة الأعلى أن تستمع إلى من هو أدنى درجة فى التطور الحضارى.

عصر الفلسفة.. وعصر العلم:

* هل انتهى عصر الفلسفة فى عصر العلم؟

قال الدكتور زكى نجيب محمود أبو الفلاسفة المعاصرين فى مصر:

إذا علمنا أن أخص خصائص الفكر الفلسفى، هو أنها تحاول أن تحفر تحت الجو الثقافى القائم فى عصرها بكل ما يحتويه من دين وفن وعلم وغير ذلك. باحثة وراء ذلك كله عن الجذور العميقة التى أنبتت شجرة الثقافة كما يعيشها الناس. لعلمنا أنه طالما وجد بين يدى الإنسان عقيدة دينية، أو سياسية أو علم. أو فن أو ما شئت من دروب الفكر.. فلابد أن يوجد بجوار ذلك من يرد النشاط الفكرى إلى ينبوعه لتكتمل الصورة أمام الناس.. وذلك لأن الإنسان العادى سواء كان إنسانًا عابدًا أو عالمًا أو فنانًا أو غير ذلك إنما يمارس تخصصه دون أن يبحث عن مثل ذلك الجذر العميق إلا إذا تعمد ذلك.. وعندئذ يكون فيلسوفا.. فأكثر الفلاسفة هم

من أصحاب تلك التخصصات نفسها ؛ ولكنهم وقفوا عند ذلك التخصص .. ليسألوا من أين جاء وكيف نبت ، والإجابة عن سؤالك هو الفلسفة .. فمن غير المتصور إذن أن توجد الشجرة بغير جذور فى أى عصر من العصور.

ولعل ..ـين يقولون : إن عصر الفلسفة قد انتهى ولم يعد قائمًا ، وإننا فى عصر العلوم لا يقصدون بذلك الفلسفة التى تصب تحليلها على العلوم ، وإنما يقصدون ربما ذلك النوع من الكلام الأجوف الفارغ الغامض .. الذى يقوله بعضهم أحيانًا ويزعم أنه بهذا التخطيط قد أصبح فيلسوفًا .

الوصفية المنطقية :

* هل مازلت مؤمنا بالوصفية المنطقية أم لك تحفظات عليها ؟

- نعم فى الواقع إلى هذه اللحظة .. يعاودنى التفكير آنًا بعد آن ، خصوصًا عندما اجد كثيرين لا يقبلون مثال هذه النظرية الفلسفية .. أقول : إنى أعاود التفكير وأسأل نفسى .. هل ما تزال ثابتًا عند وقفتك أمام ما وجه إليك من نقد النقاد .. فأجد ألا موقف لى سواه .. وهو موقف أتعجب ممن يرفضه .. لأن ما خلاصته ؟ خلاصته أننى فى حياتى الفكرية والوجدانية أنشط بدروب مختلفة من النشاط منها ما هو علم .. ومنها ما هو شعر .. ومنها ما هو أساطير .. وهكذا .. فكل الذى أقوله هو أننى حين أكون فى مجال علمى . لابد

أن أكون على استعداد لإقامة البراهين على صحة ما أقوله إذا ما طلب مني إقامة البراهين. لأن العلم نشاط مشترك بيني وبين الناس .. العلم ليس شيئًا خاصًا في حياة الإنسان الخاصة .. إنما هو ناتج يعرض على جمهور العلماء .. فكيف أعرض على جمهور العلماء فكرة ما .. ثم أرفض أن أبرهن لهم على صحتها مستعينًا بالتجربة المشتركة بيني وبينهم .. وأما سائر المجالات من دين وشعر وأدب وفن وتقاليد وعرف وأساطير وغير ذلك من أوجه الحياة، وهي كثيرة جدًا .. لا يطلب عندئذ أي برهان .. وبالتالي فهي مجالات خارجة عن حدود المذهب التجريبي العلمي الذي اتجه إليه، فأنت أمام قصيدة من الشعر إما أن تتذوقها وإما أن ترفضها ولا براهين.

وأنت أمام العقيدة الدينية إما أن تؤمن بقلبك وإما أن تبحث لك عن عقيدة أخرى ولا براهين .. وهكذا فمن الذي يرفض هذا القول ؟.

عندما توجه النقاد إلى نظرتي هذه بالنقد، ظنوا أن البراهين التجريبية التي اشترط اللجوء إليها مطلوبة ليس في العلم وحده، ولكنها أيضًا مطلوبة في مجال العقيدة والفن والأدب وغير ذلك، وهذا غير صحيح .. فمازلت اشترط الاعتماد على التجربة العلمية كلما كان الإنسان في مجال بحث علمي .. وأما غير ذلك من مجالات فهي على أهميتها البالغة في حياة الإنسان لا يطلب عليها مثل هذه البراهين، إنما هي مجالات .. ايمان أو تذوق .. أو حب، أو قبول

نفسي وتقبل فليس بالعاطفة وهكذا.

أريد أن أقول: إن مصدر الخلط عند النقاد، هو أنهم لم يفرقوا بين (الدكان) الذى يبيع العلوم.. وبقية الدكاكين التى تبيع سائر أنشطة الإنسان الوجدانية.. والعاطفية القلبية.. والشعورية.

العصر الذى أريده:

* ما العصر الذهبى من عصور التاريخ الذى تتمنى لو كنت تعيش فيه؟

قال: من الجائز أن مثل هذا السؤال يجد عندى إجابات مختلفة فى الظروف المختلفة.. إنك لو سألتنى هذا السؤال عندما كنت أصغر سنًّا وأكثر نشاطًا، وأكثر حماسًا للحياة، لما ترددت فى أن أجيب بأن العصر الذى أحب أن أعيش فيه هو عصرنا هذا بكل علومه وتفوقه وأجهزته العلمية وغيرها.. ولكننى فى هذه الدقيقة أميل إلى جواب آخر ربما بسبب حالتى الصحية التى تصحبها حالة نفسية ليست بمشرقة.. جوابى هو أننى أتمنى لو كنت عشت فى العصور الأولى بكل بساطتها.. فأعيش راعيًا للإبل مع الرعاة.. فلا زحمة طريق.. ولا قذارة فى الطريق.. ولا تنافس مميت بين الناس.. ولا طموح مبالغ فيه.. وإنما الحياة بسيطة وتقتنع بالقليل.

سقراط وأبو العلاء:

* لو عرضت عليك صداقة أحد الفلاسفة فمن تحب أن تصادق؟

- بين الفلاسفة جميعًا.. من أول الزمان إلى آخره لا أفضل أحدًا أصادقه وأستمع إليه، وأحاوره أكثر من «سقراط».

* ومن الأدباء؟

- أبو العلاء المعرى.

* من أنت؟

- أنا زكى نجيب محمود.. ولدت فى أول فبراير سنة ١٩٠٥ بقرية ميت الخولى عبد الله.. فى محافظة دمياط وتعلمت بفضل الله حتى ظفرت بأعلى الشهادات الدراسية هنا.. وفى انجلترا.. وأراد لى الله.. نعمة أن أحب القراءة منذ الطفولة.. فأتيح لى بذلك أن أصاحب أعظم عقول البشر.. وأجالسهم فى كتبهم ساعات وساعات مما أضفى على حياتى رحابة وسعة وبعد فى الآفاق.

ولعلى أيضًا نعمت نعمة كبرى بفضل الله.. هى نعمة أن أكون معلمًا.. بحكم المهنة وبحكم الطبيعة.. طبيعتى، فأنا عندما أحاضر طلابى أكون فى أسعد لحظات حياتى.. لأننى دائمًا أحس باندماج فى الفكرة التى أعرضها وأشرحها.. فأكتسب بها حياة، وأكسبها حياة.. ولقد وضعت كثيرًا جدًّا من أفكارى فى كتب بلغت ٤٧ كتابًا.. وربما على سبيل التيسير فى رسم صورة حياتى العلمية..

أقول: إنها حياة سارت على مراحل كل منها يمتد عشر سنوات تقريبًا، وكل منها يتميز بميزة مختلفة، فقد تخرجت عام ١٩٣٠ .. ومنذ ذلك التاريخ وأنا أكتب باستمرار لا ينقطع.

ففى السنين من ٣٠ - ٤٠ كان معظم ما كتبته عرضًا لأفكار الآخرين فى مجلات أو كتب.

فى العشرة الثانية من (٤٠ - ٥٠) سافرت بعثة إلى إنجليرا .. فتغيرت نظرتى من عدة وجوه .. فرأيت ما فى حياتنا المصرية من نقص خصوصًا فى احترام الناس بعضهم لبعض، ثم من نقص فى الحياة الإبداعية سواء كان أدبًا أم علمًا .. فكتبت فى هذه السنوات العشر ما يشتعل حرارة فى نقد حياتنا، وقد جمعت هذه الكتابات فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات فى كتب.

أما من (٥٠ - ٦٠) فمعظم إنتاجى فيها كان كتبًا جامعية فى الفلسفة بصفة خاصة.

أما العشرة التالية من (٦٠ - ٧٠) فمحورها مجلة الفكر المعاصر التى أنشأتها باسم وزارة الثقافة، وأشرفت على تحريرها، وجعلت رسالتها أنها لا تعنى باتجاه نحو اليمين، أو اليسار فى النشاط الثقافى، ولكن تهتم فقط بالمستوى .. فمازالت الفكرة جيدة، وتستوقف العقل فلابد أن تستثمر سواء جاءت من الشرق أو الغرب.

أما السنوات من (٧٠ - ٨٠) فكلها انصرفت نحو محاولة أن

أتصور صورة لحياتنا الفكرية والثقافية، تندمج فيها الحياة العصرية ومشكلاتها مع التراث الذى ورثناه عن آبائنا وأجدادنا فى صيغة واحدة.

وينتهى الحوار مع المفكر الكبير.. وإن كان مازال فى ذهنى عدد كثير من علامات الاستفهام حول قضايانا الفكرية والثقافية.. ولكن شعرت بأنى أخذت من وقت أستاذنا الكبير أكثر من ثلاثة ساعات.. مما اضطرنى أن أطوى أوراقى مستأذنًا بالخروج ويكفينى أننى أشرت مجرد إشارة.. إشارة.. أصبع لبعض آراء «زكى نجيب محمود» شيخ الفلاسفة والمفكرين.

صالح جودت

كانت هناك ندوة شعرية ألقى فيها الشاعر صالح جودت قصيدة ثم خرج ، حيث كان مشغولا بعمله فى دار الهلال .. ولم أكن قد شاهدته وهو يلقى هذه القصيدة فقد حضرت بعد خروجه .. وتابعت قصائد بقية الشعراء .. وكتبت تحقيقًا سريعًا على هذه الندوة .. وفى اليوم التالى ، اتصل بى صالح جودت معاتبًا وقد ظن أنى تجاهلته عن عمد .. وكان ذلك أبعد شيء عن الحقيقة .. وكانت هذه هى المرة الأولى التى أتحدث فيها مع الشاعر الكبير .. وطلب منى أن ألتقى به .. والتقيت به .. وكان هذا هو أول لقاء معه .. وتوطدت الصداقة بينى وبينه من يومها .. وعندما كتبت عنه دراسة فى آخر ساعة وكان هو يعانى من مرضه الأخير .. أرسل لى خطاب شكر من لندن ..

وكان هذا آخر لقاء فكرى معه.

وقد أخذت أهتم بشعر صالح جودت عندما احتدمت المعارك بينه وبين الشعراء الذين يؤمنون بالشعر الحر.. وقد تابعت هذه المعارك التى دارت حيث انقسم الشعراء والنقاد إلى فريقين.

* فريق يرى أنه ليس من المعقول أن يظل الشعر العربى أسير قوالبه القديمة لا يحيد عنها باعتباره قدس أقداسه.. وليس من المعقول أن يظل فى جزيرة معزولة لا ينفعل بالتيارات العالمية التى سادت الشعر العالمى. أى أن الشعر كان لابد أن يبحث عن طريق للتغلب على القيود التى فرضتها القافية وتبحث عن شكل يستطيع من خلاله التعبير عن الأعمال الدرامية والملحمية، والتخلص من الطابع الغنائى الذى يسيطر عليه عدة قرون ومن هؤلاء الذين دافعوا عن هذا الاتجاه: الشاعر صلاح عبد الصبور وغيره.. فالشاعر صلاح عبد الصبور له مفهوم خاص عن الشعر، يحاول أن يحققه فى أعماله الشعرية. وهو يرى أن هذا المفهوم يختلف بالطبع عن مفهوم الشعر العربى القديم. ويختلف أيضًا عن مفهوم المدرسة الرومانتيكية التى كان من شعرائها على محمود طه وناجى وغيرهما إنه يحاول أن يجعل الشعر معبرًا عن موقف الشاعر من الحياة بتياراتها وثقافتها ومشاكلها الإنسانية الكثيرة، ويستعين على ذلك كما يقول - بتثقيف نفسه بالقراءة فى كل نواحى الفكر الإنسانى من تاريخ وفلسفة، وبأن يكوِّن لنفسه فكرة شاملة عن الحضارة

الإنسانية وحلولها المختلفة لأزمة الإنسان. وأن ما يميز الشاعر المعاصر عن الشاعر القديم، هو أن الشاعر القديم كان أقرب إلى اللغة، بينما يقف الشاعر المعاصر أقرب إلى الفكر.

وصلاح عبد الصبور يرى أيضًا أن الشعر الحر تطور لابد منه، ولكنه ليس الشكل النهائى.. فهو يتنبأ بأن الشعر سيعود فى المستقبل إلى نوع من التوفيق بين الشكل القديم والشكل الحديث الشائع الآن. ولكنه لا يستطيع أن يحدد هذا الشكل.. (المركب الجديد) لأنه مازال فى بطن الأيام.

* وتيار آخر يرى أن الهروب من الوزن والقافية هو عجز هؤلاء الناس الذين يحاولون أن يكونوا شعراء بدلا أن يكونوا شعراء حقيقيين.. فالشاعر الملهم هو ذلك الذى لا يتطاول على قواعد الشعر وموسيقاه، وبحوره وأوزانه، ولكن الشاعر المقتدر هو الذى يستطيع من خلال هذا التراث الضخم أن يعبر عن مفاهيم العصر الحديث..

وصالح جودت اختار لنفسه ان يكون محافظًا على الشعر التقليدى، ومن هنا اكتسب عداوة البعض، واكتسب الأنصار من البعض الآخر.

وأذكر أننى جلست جلسة طويلة مع صالح جودت.. تناقشنا خلاله عن الشعر والشعر الحديث أو ما يطلق عليه الشعر الحر.. وكان يثور أحيانًا عندما أطلق لفظ الشعر على (الحر) ثم يهدأ

ويبتسم ابتسامة ساخرة.

قلت له: هل هناك أصلا ضرورة للشعر فى هذا العصر؟ على الفور أجاب:

الشعر هو الكلمة الحلوة.. هو النغم العذب. ولا أتصور إنسانًا يستطيع أن يعيش على غذاء الجسد فقط.. حياة مجردة من الكلمة الحلوة.. والنغم العذب.. الشعر ضرورة، بدليل أننى وجدت فى أمريكا - وهى قمة الحضارة المادية التى تحتوى أكثر المذاهب الصاخبة - حاجة ملحة إلى الشعر، وغذاءً ضخمًا فى الشعر، وحسبى أن أقول: إن الشعر فى أمريكا لا يطبع فى دواوين فقط، بل على اسطوانات وشرائط تسجيل.. ويكاد يكون له وجود فى كل بيت. وقد بلغ دخل الشاعر الأمريكى روبرت فروست من دخل ديوان واحد مسجل، نصف مليون دولار، وزادت حصيلة بيع ديوان آخر للشاعر الإنجليزى المتأمرك دىلان توماس، على مليون دولار.. وأنا لم أذهب إلى الاتحاد السوفيتى، ولكن الذين ذهبوا إلى هناك، يحدثوننا بأن الشعراء هناك مرموقون ورائجون إلى أبعد حد.

والشعر عند صالح جودت معناه الشعر الموزون المقفى، وما عدا هذا فليس شعرًا بالمرة.. والشعر الذى يسمونه بالشعر الحديث (فقاعة) لن تلبث أن تذهب مع الريح ولن يكتب لها الخلود؛ لأن عنصر الخلود فى الشعر هو الوزن والقافية.. وهذا

ما حفظه التاريخ منذ الجاهلية الأولى حتي اليوم.

وصالح جودت يؤمن بأحمد شوقى إيمانا عميقا.. فقد تأثر بالشوقيات.. بل ويؤمن بأن شوقى هو سيد المقدمين والمؤخرين؛ لأن الشعر هو الموسيقى قبل كل شيء والشاعر الذى لا يبدع موسيقاه يجب أن يعتزل الشعر ويكتب نثرا.. وهو يرى أيضا أن شوقى كان أشعر من المتنبى والبحترى.

وكان صالح جودت يكره النقاد.. فهو لا يعترف بهم.. لأنهم فى رأيه يعتبرون أن النقد هو التهجم على المنتجين الخلاقين من شعراء وقصاصين.. ومحاولة تلمس.. المثالب فى إنتاجهم والسقطات حتى الأخطاء المطبعية فى أعمالهم الأدبية. أما الدارسون الذين يدرسون العمل الأدبى ليبينوا النواحى الجمالية فيه أولا، ثم يستعرضوا نواحى النقص فى إنصاف وغير حقد.. فهؤلاء فى نظره يستحقون كل إجلال..

والحقيقة، أن صالح جودت شاعر مرهف الحس والوجدان.. وأن شعره يمتاز بالسلاسة والجمال. كما أنه لعب دورا هاما فى جماعة أبوللو فى محاولاتهم خلق معنويات القصيدة بالمعنى الحديث. مثل وحدة القصيدة والتحرر من القافية الواحدة وفى فتح مجالات الملحمة والقصة أمام فن الشعر العربى.

وصالح جودت له أيضا دور فعال مع زملائه من أمثال الهمشرى وناجي وأبو شادى فى ربط الشعر بوجدانيات الشاعر، من خلق

مدرسة جديدة تتبنى قضايا المجتمع ولا تنعزل عنه، وفى نفس الوقت لا ينسى الشاعر نفسه فى موضوع ما ، فلابد أن يدخل ذاته .. ويعبر عن مشاعره.

ومن أرق قصائد صالح جودت، تلك القصيدة التى يخاطب فيها حسناء أثناء مرضه فى إحدى المستشفيات، إنه فى هذه القصيدة يتحدث عن هموم مجتمعه وفى نفس الوقت لا ينسى مشاعره .. فهو يقول فيها:

يا ممرضتى الحسناء قدر لى
أن ألتقيك بأرض غير حسناء
ماذا أتى بى هنا ما خطب عافيتى
وكيف غال شبابى غائل الداء
ما هذه الجثث الملقاة فى سرر
أنصاف موتى على أنصاف أحياء
صفر الوجوه كأن السقم عفرهم
بحفنة من تراب القبر صفراء
لله فيهم تراتيل منغمة
تنساب من قصبات نصف خرساء

ومن قصائده التى تربط الواقع بمشاعر الشاعر أيضًا قصيدة تشيد بالثورة. ومنها نختار هذه الأبيات التى توضح منهج الشاعر:

أيا شمعة عند كوخي الحقير وراء المجاهل فى قريتى
لقد ذبت فى النار نار الشقاء كما ذبت بالليل
ياشمعتى .
وعشرون مليون نفس كنفسى يذوبون مثلى
من الحسرة .
همو أهل بيتى ، همو والداى ، همو
إخوتى .
حظائرنا تجمع الآدمى بجنب السوائم
فى الغرفة .

إلى أن يقول بعد أن يصور حياة المواطن الذى كان يحياها ..

أيسـألنى أحـد كيف ثـرت ؟
لقـد ثـرت من أجـل حـريتى

***

وأرق أشعار صالح جودت هى التى يتناول فيها المرأة .. أى شعره الغزلى فهو فى قصيدة (كبرياء) مثلا . نرى رقة الشاعر . وفى الوقت نفسه يظهر منهجه أيضًا فى ربط الشعر بالوجدان .

أجـل أنـت فـاتـنـة
أرى عـزة النفس لى أفـتنـا
وإن كان عندك سحـر الجمال
فسحـر الـرجـولـة عندى أنـا

وإن كثرت في هواك القلوب
فذلك من بعض ماعندنا
وإن غرّورك بحلو الشباب
فإن الشباب سريع الفنا
وأنت المنى غير أنى أمرؤ
لايبذل للكبرياء المنى
ويكره فى الحب بذل الدموع
وبسط الخضوع وقرع الضنا
إذا المرء هان على نفسه
لكان على غيره أهونا

وصالح جودت له مؤلفات كثيرة فى الشعر والقصة والمقال فمن مؤلفاته – شعر – ناجى حياته وشعره (مسيرة) قلم طائر (رحلات) (بنت أفنديا) قصة ملوك وصعاليك (تراجم) وغير ذلك من المؤلفات .

***

ولكن أى دراسة لصالح جودت لابد أن تقف عنده كشاعر قبل أى شيء آخر .. فأبرز جوانب إنتاجه بلاشك هو الشعر .. وإذا أقيم هذا الشعر فإنما يقيم من خلال المقاييس المتعارف عليها فى الشعر العمودى ، وإذا كان الشاعر صالح جودت لم يكن يعترف بالشعر الحديث من قريب أو من بعيد . فقد سجل هذا الاعتقاد فى

قصيدة ألقاها فى أحد مهرجانات الشعر .

عدنا وعاده المهرجـان يزف مـوكبه وشعـره
الشعر - لا الشعر الجديد المستباح لكل عوره
لامـايقول العـابثـون بكـل قـافيـة وشـطره
من كل مغمور يهب بغـير موهبـة وخبره

فصالح جودت يرى أن الشعراء الذين يكتبون الشعر الحر جهلة بقواعد الشعر فهربوا إلى الشعر الحر .. وهو يرى فى الشعر الحديث رأى العقاد . فرغم أن العقاد كان مغرمًا بالشعر الإنجليزى المرسل ، فإنه كان العدو الأول للشعر المرسل فى اللغة العربية ، وتعليله لذلك فى كتابه (يسألونك) سواء رجعنا بتقليل ذلك إلى وحدة القصيدة عندنا وعندهم أو إلى أصل الحدا فى لغتنا وأصل الغناء فى لغتهم ، أو إلى غلبة الحسبة فى فطرة الساميين ، وغلبة الخيالية والقصور فى فطرة الغربيين ، فالحقيقة الباقية ، هى أننا نحن الشرقيين نلتذ شعرهم المرسل ولا نفتقد القافية فيه ، وأننا ننفر من إلغاء القافية عندنا ونداريه بالتوسط المقبول بين التقييد والإطلاق .. ليس من اللازم أن نعتمد على مجاراتهم أو يعتمدوا على مجاراتنا فى كل إطلاق وتقيد .

وإذا كانت معركة الشعر الحديث لها من يؤيدها ولها من يعارضها ، فقد اكتسب كل جانب أنصارًا .. فنرى كامل الشناوى يعطى رأيه فى هذه القضية فيقول :

- صالح جودت يحمل لواء الدفاع عن الأسلوب التقليدى فى الشعر ، وهو يؤمن بأن الشعر الجديد ليس حرية ولكن فوضى .. وأنا اتفق معه فى أن الشعر فن له قيود وقواعد ، ومن حق الفنان أن يتحرر من القيود ولكن ليس من حقه أن يتحرر من القاعدة .

وهنا يقوم بسؤال : هل تساوى التفعيلات فى البيت الواحد قاعدة أو قيد ؟ هل تعدد البحور فى القصيدة قاعدة أو قيد ؟ إن هذه كلها ليست من قواعد الشعر ولكنها من قيوده .. ولا أعرف إن كان صالح جودت يأخذ على الشعراء المتحررين اتجاههم إلى التخلص من هذه القيود أم أنه يأخذ عليهم أن لهم اتجاها .. أى اتجاه !

مهما يكن من شىء فإن هذه القضية لم تحسم بعد ، وعلى الشعر الحديث أن يثبت أقدامه أولا .. وسوف يحسم الأمر بعد ذلك إن كان سيظل أم تنتهى دولته .. ومهما قيل عن صالح جودت فهو شاعر متمكن .

وأذكر آخر كلمة سمعتها منه عندما سألته من أنت ؟

فقال : أنا إنسان عاش لايؤدى واجبه فقط ، بل يؤدى ماهو فوق الواجب ولهذا ، فأنا راض عن نفسى كل يوم لأننى أشعر برضاء الله عنى فى كل يوم .

مع طه حسين

لا شك أن طه حسين بجانب ماتركه من تراث هائل فى القصة والنقد والدراسات الدينية والأدبية .. وبجانب مافجر من معارك نقدية فى غاية الجرأة والجسارة .. فإنه أيضًا ترك آثارًا بعيدة المدى فى حياتنا الثقافية عندما أطلق شعار « التعليم كالماء والهواء » وطبقه عمليًّا عندما تولى وزارة المعارف .

وطه حسين أيضا أحد الركائز فى نهضتنا الثقافية الحديثة .. ومامن إنسان فى فرع من فروع الحياة فى مصر ، إلا ونرى له موقفًا سواء كان سلبيًّا أو إيجابيًّا من طه حسين .. وذلك إن دل على شىء ، فإنما يدل على ماله من مكانة فى النفوس ، وماتركه من أثر فى حياتنا ولايزال .

ولا أعرف بالضبط سر إعجابي الكبير بهذا الرجل !

هل لإرادته الحديدية التي استطاع بها أن يحقق المستحيل .. فإذا به وهو فاقد البصر يضيء للمبصرين طريق حياتهم .. أم لأنني انبهرت بما كتبه ، وكانت كتبه من أهم وسائل التثقيف في مقتبل حياتي ؟

أيًّا كان الأمر .. فقد قرأت أول ما قرأت له كتاب الأيام .. وطالما هزني وأشجاني هذا الكتاب .. وهو يصف طفولته .. وكيف فقد بصره .. وجهاده العلمي في الأزهر ثم الجامعة ، ثم سفره إلى باريس للدراسة .. ثم عودته ليبدأ رحلة عمر طويلة .. خاض في خلالها معارك ضارية في عالم الثقافة .. وفي السياسة أيضًا .

وكان من آمالي أن التقى بالدكتور طه .. وأن أتحدث معه .. وأن أعرض عليه بعض القضايا الأدبية مستوضحًا رأيه فيها .. وكان هذا الأمل يبدو صعبًا ومستحيلا .. فكيف أبدأ الحوار مع هذا الإنسان الذي ملأ الدنيا وشغل الناس وهو في آخريات عمره .. ويصعب على الإنسان في بداية حياته الصحفية أن يقتحم عليه خلوته ؟

قلت لنفسي : لو طلبته وحددت معه موعدًا فلن أحظى بهذا الموعد أبدًا لأنه لا يعرفني .. كما أنه بالقطع يرفض أن يلتقي بصحفي ناشئ مازال على أول سلالم صاحبة الجلالة .

وخطر ببالي أن أذهب إليه مباشرة .. بلا موعد سابق وليكن

مايكن .. ووجدت نفسى أندفع إلى (فيلارامتان) حيث يقيم عميد الأدب .. وفتح الباب سكرتيره .. وأفهمته أننى على موعد مع الدكتور .. واندهش الرجل .. فلو كان هناك موعد لكان هو الذى حدده .. ولكننى تلفت .. وأنا أسير إلى حجرة مضيئة فى البيت .. لأجد مكتبة ضخمة .. وأرى الدكتور جالسًا .. وأحسست أننى فى مأزق .

وكيف أفسر له الدافع إلى الدخول إليه بدون ميعاد سابق ؟

وغرقت فى بحر من علامات الاستفهام .. وكان على أن أواجهه بأن الدافع وراء هذا اللقاء هو حبى وتقديرى لما يكتب .. وأن من أحلامى أن أجرى حوارًا معه .. وتعجب الدكتور طه أول الأمر .. وصمت صمتًا طويلا .. وأنا أحاول أن أجد خيطًا أبدأ منه الحديث .

قلت له : سيادة العميد .. كان الأدباء فى كل ثورات العالم من الذين قاموا بحركات التمهيد لهذه الثورات .. ماعدا مصر .. فلم لم يكن للأدباء دور يذكر فى التمهيد ؟

وكان هذا السؤال قد استفزه .. فإذا به يرمينى بالجهل .. وكنت حريصًا كل الحرص على أن يقول أى شىء ، يومها قال الدكتور : ألم تقرأ وتعرف أن كتاب (المعذبون فى الأرض) قد صودر بأمر إبراهيم عبد الهادى .. وأنه خطب خطبة فى (فارسكور) يوم كان وزيرًا للمعارف مطالبا الأغنياء أن يعملوا من أجل تعليم الفقراء وإلا ستقوم ثورة . وتحدث طه حسين .. وأخذت أدون مايكتب

بسرعة .. وإذا به يصمت وكأنه شعر بأننى دفعته إلى الحديث .. فإذا به يبتسم ابتسامة وقور ثم يطلب منى أن أسأله ماأشاء من أسئلة .. وسألته فى الأدب والفن والسياسة والمرأة والحياة والمسرح .. واستغرق اللقاء أكثر من ساعتين .. وشعرت فيما بينى وبين نفسى بسعادة غامرة .. لا لأنى حققت نصرًا صحفيًّا .. ولكن لشعورى بأننى جلست مع هذا العملاق وجهًا لوجه .. وناقشته فيما خطر على بالى من أسئلة .. ووجدت نفسى بعد ذلك أعكف على قراءة ما كتب الدكتور طه فى مختلف أنواع المعرفة .. وكان يتداعى إلى ذهنى صورة مرت بى عندما كنت أقرأ (الأيام) .. وأنا أتجه إلى مدرسة دمنهور حيث دراستى الثانوية .. والحنين يشدنى إلى القرية .. ثم يخيل إلى موقف طه حسين .. وهو جالس فى انتظار القطار الذى يقله إلى القاهرة .. وتتساقط من عينيه الدموع .. وإذا بوالده يسأله عن سبب بكائه .. وهل يرجع ذلك إلى أنه لايستطيع ترك اللعب أو ترك أمه .. ولكن طه يجيب فى كتابه الرائع ذلك .. « شهد الله ما كان الصبى حزينًا لفراق أمه ، ولم يكن حزينًا لأنه لم يلعب ، ولكنه كان حزينًا لأنه يتذكر الراقد هناك وراء النهر ، والراقد هنالك وراء النهر هو أخ له كان من المفروض أن يسافر معه ليكمل دراسته فى الطب » .

والذى يتابع مسار طه حسين بعد ذلك .. ويحاول أن يعرف لماذا صاح طه حسين صيحته المدوية « التعليم كالماء والهواء » يجد أن هذا

الشعار كان يؤمن به طه حسين إيمانًا عميقًا يكمن فى أنه كان يرى أن حل مشاكل مصر بمختلف فروعها يكمن فى التعليم .. فإذا انتشر التعليم ، وانحسرت الأمية .. فسوف يتحقق لمصر الكثير على المستوى السياسى والاجتماعى والاقتصادى .. لأنه من الصعب احتلال أمة متعلمة .. ومن الصعب خداع دولة متعلمة .. والمتعلم يعرف حقوقه .. ويعرف أيضًا واجباته ..والمتعلم يصعب أن تحكمه بالحديد والنار .. أى أن التعليم بجانب أنه يرفع من مستوى الإنسان المعنوى والمادى .. فإنه يدفع الأمة دائمًا إلى حياة أكثر حضارة ورقيًا وتمدنًا .. ولهذا نراه يعلن ذلك صراحة فى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) :

« أول وسيلة من وسائل الكسب التى يجب على الديمقراطية أن تضعها فى أيدى الأفراد إنما هى التعليم .. الذى يمكن الفرد من أن يعرف نفسه .. وبيئته الطبيعية .. والوطنية والإنسانية ، وأن يتزود من هذه المعرفة ، وأن يلائم بين حاجته وطاقاته وما يحيط به من البيئات والظروف .. وقد لايكون من الميسور أن يطلب إلى الديمقراطية منح الأفراد كل ما يحتاجون إليه ، ولكن الشىء الذى لاشك فيه ، أن الديمقراطية ملزمة أن تمنح الأفراد حظًا يسيرًا من هذه الوسيلة » .

وكان طه حسين يرى أن الحرية لاتستقيم على الجهل ولاتعايش

اللغة والغفلة والغباء .. فالدعامة الصحيحة للحرية الصحيحة ، إنما هى التعليم الذى يشعر الفرد بواجبه وحقه .

***

ولعل طه حسين فى تناوله بالتحليل لحياة أبى العلاء المعرى .. الذى أعجب به طه حسين إعجابًا شديدًا .. كأنه وهو يحلل حياة أبى العلاء ، يحلل نفسه هو فى قلقه وبحثه عن الحقيقة .. إنه يقول :

– وكذلك أنفق أبو العلاء نصف قرن من حياته يواجه هذه الخواطر إذا أصبح .. ويواجهها إذا أمسى .. ويواجهها أثناء الليل إن أبطأ عليه النوم .. ولعله يواجهها أثناء النوم إن صورتها له الأحلام .. وقد وجد أجوبة مختلفة عن هذه الأسئلة .. وجد أجوبة مختلفة عن هذه الأسئلة .. وجد أجوبة الديانات .. ووجد أجوبة الفلسفة .. وكان خليقًا أن يطمئن إلى هذه الأجوبة تلك فيريح ويستريح .. ولكن هذا الاطمئنان لم يقدر له ، فهو يستريح إلى ماجاءت به الأديان .. ويهيئ نفسه للبعث ويجتهد ما استطاع فى تحصيل الخير وتحقيق العمل الصالح .. ولكن عقله لايلبث أن يصور له الأمور متناقضة لما أطمأن إليه .. فما بال الإنسان يخص بالبعث ومايستتبعه البعث من ألم ولذة .. ومن جحيم أو نعيم .. ألأنه عاقل وهو من أجل ذلك مكلف ؟

ولكن مابال الانسان خص بالعقل ؟

وما باله خص بالتكليف ؟

وإذن فقد ذهبت عن المسكين طمأنينته .. وخاب كل ما كان قد عقد من أمل ..

لقاء معه

وأذكر أول لقاء مع عميد الأدب العربى

* فى حجرة فسيحة بالدور الأرضى من فيلا (رافتان) .. كان لقائى الأولى مع الدكتور طه حسين وكان اليوم هو بداية العام الجديد .. وكانت مجموعة الصحف الملقاة على أحد المقاعد تشير عناوينها العريضة إلى تنبؤات العواصم العالمية حول العام الجديد .. وهل هو عام حرب أم سلام ؟

وقلت لعميد الأدب العربى وأنا أبدأ حديثى معه :

* بعض الناس يقولون : إن الحرب ضرورة لإنعاش أمراض النظم الاقتصادية .. فلم يخل جيل من الأجيال من الحرب ؟ فهل الحرب ضرورة ملحة من ضرورات الحياة ؟

وبابتسامة هادئة قال لى طه حسين :

- هل نبدأ بالحروب ؟ إن الحديث حول الحرب والسلام ربما من اختصاص الساسة .. لكن الأمل الذى يتمناه كل الناس هو السلام .. حتى تستريح الأجيال من أهوال الحرب .. وحسبنا نحن أننا عشنا حربين عالميتين .

قلت : - أعتقد أن السياسة ليست دخيلة على الأدباء .. فالأدباء كانوا مشاعل أضاءوا الطريق أمام الثورات ومهدوا لها .. فهل كان لأدبائنا دور فى التمهيد لثورتنا العظيمة ؟

دور الأدباء

قال : صحيح أنه لم يكن عندنا فولتير أوجان جاك روسو ولكن الذى لاشك فيه هو أن الأدباء قد مهدوا للثورة .. وأتذكر أن كتاب « المعذبون فى الأرض » صودر بأمر إبراهيم عبد الهادى عندما كان رئيسًا للوزارء .. واضطررت إلى طبعه فى بيروت ..ولم ينشر فى مصر إلا بعد الثورة .

ومضى الدكتور يقول :

- وهناك الكثير من الكتب التى كان لها فعل السحر فى تحريك الجماهير مثل « مستقبل الثقافة » .. و« أهل الكهف » وماكتبه المرحوم عباس محمود العقاد عن الديمقراطية وثورته على الاستبداد .. كل ذلك لعب دورًا كبيرًا فى التمهيد . ثم يستطرد قائلا :

- أتذكر أننى زرت الدقهلية عندما كنت وزيرًا للمعارف .. وكان ذلك قبل الثورة بقليل .. وفى فارسكور خطبت فى جموع حاشدة من الناس وقلت يومها :

– إن من الحق على الأغنياء أن ينفقوا أكثر مما يستطيعون على التعليم .. وعلى إصلاح الحياة الاجتماعية قبل أن يأتى اليوم الذى يضطرون فيه إلى ذلك .

الأدب أيام الثورات

قلت : لقد حققت ثورتنا مالم يكن يخطر على بال الأدباء ، فهل عبروا هم عن هذه الثورة ، عن انطلاقنا الحضارى ؟ وماهو دورهم فى مجتمعنا الاشتراكى ؟

وقال الدكتور : – إن دور الأديب فى المجتمع الاشتراكى هو دوره فى أى مجتمع آخر .. إنه مرآة الحياة الاجتماعية .. وهو مصباح للناس فى حياتهم الاجتماعية أيضًا يستفيدون به من جهة .. ومن جهة أخرى يصور الحياة الاجتماعية ويعين الناس على أن يوفقوا بين حياتهم الفنية وحياتهم الاجتماعية .. أما الأدباء فهم لم يعبروا بعد عن هذه الفترة من حياتهم .. وعادة أنه فى أيام الثورات يكون الأدب ساكنًا إلى حين .

وقبل أن انتقل إلى سؤال آخر .. دخلت زوجة الدكتور طه حسين .. لتتحدث إليه بالفرنسية حديثًا مختصرًا سريعًا .. ثم خرجت .

وقلت وأنا أتذكر ماقاله توفيق الحكيم فى مجلة « هى » بأن

المكان الطبيعى للمرأة هو البيت ، وأن على المرأة أن تتفرغ لشئون بيتها على أن يمنح الزوج علاوة زوجية .. وأن شئون البيت هى الفلك الذى يجب أن تدور فيه المرأة .. فما رأى عميد الأدب العربى ؟

مشاركة المرأة للرجل

وفى صوت هادئ عميق قال :

– توفيق الحكيم مخطئ فى هذا الكلام .. فالمرأة عليها أن تعمل مادامت تستطيع أن توفق بين بيتها وبين أولادها .. إن كان لها ولد وبين العمل .. فلا معنى أن تلزم البيت .. أما إذا كانت غير متزوجة ، فلا بد لها أن تعمل بجانب الرجل سواء بسواء .

قلت : وماذا عن حرية الفتاة .. وعن حدود هذه الحرية ؟

قال : الفتاة يجب أن تعطى لها نفس حرية الشاب .. ويجب ألا تحرم بنت من حريتها بحجة التقاليد أو الخوف من الانحراف .. فهذا الخوف ليس نابعًا من الانحراف فقط .. فالشاب نفسه يخطئ .. وعلى الأسرة أن تحافظ على أبنائها بالتدخل الواعى المستنير .

ويضرب الدكتور مثلا بنجاح المرأة فى مختلف الميادين ، بأنها سارت بجانب الرجل ، وشاركته قدره ومصيره .. رأينا منها

المهندسة .. وعالمة الذرة .. ورأينا منها الشاعرة والكاتبة الممتازة فى مختلف أزمنة التاريخ من العصر الجاهلى إلى العصر الذرى .

ويعيب الدكتور على شبابنا الزواج المبكر ويقول : فى الصعيد يتزوج فى سن ١٦ : ١٧ وهذا عبث ، فلابد أن يتأخر الزواج حتى يقوم على أساس من الفهم الواعى للحياة الزوجية السليمة .

حول السينما والمسرح

وانتقلت إلى موضوع آخر .. لقد اتجهت السينما فى بلادنا إلى أعمال الأدباء .. فماذا يقول الدكتور عن القصص الأدبية التى تحول إلى أفلام ؟

قال : إن قراءة الكتب الأدبية أفيد بكثير من رؤيتها على الشاشة ، وكثيرًا ماتشوه السينما أعمال الأدباء .. حتى فى أوربا .. فالمنتج أو المخرج يخضع لإرادة الجماهير .. وبالتالى فهو يغير من العمل الفنى بطريقة تختلف عن الطريقة التى عالجها الفنان .. كقصة « دعاء الكروان » تغيرت نهايتها وصمم المخرج على ذلك إرضاء لمشاعر الجماهير ، بحجة أن الفيلم لابد وأن ينتهى نهاية مثيرة فقتل بطل القصة ، وليس كذلك فى النص .

– وماذا عن المسرح وعن المسرحيات التى تكتب بالعامية ؟

– المسرحيات المكتوبة باللغة العامية سواء أكانت هذه

المسرحية مؤلفة أم مترجمة ليست مسرحية على الإطلاق ، فمسرحيات توفيق الحكيم التى كتبها بالفصحى مثل « شهر زاد » « وأهل الكهف » ، مسرحيات جيدة .. وتبدو دهشة الدكتور وهو يتسأل عن السبب فى عدم تمثيل باقى مسرحيات الحكيم ، وفى الوقت نفسه يبدى تخوفه بأن تمثل باللغة العامية فيسود الجهل - على حد تعبيره .

مسرح اللامعقول

وصمت الدكتور طه حسين .. وضحك كثيرًا عندما سألته عن اتجاه توفيق الحكيم فى مسرحية ياطالع الشجرة ورأيه فى هذا الأدب وهذا الاتجاه فقال :

- إن هذا اللون من الأدب مقبول فى اللغات الأجنبية لأنه ينتهى إما إلى فلسفة عليا .. وإما إلى التسلية والضحك .. أما فى اللغة العربية فلم يقرأ شيئًا ذا بال .

أما رأيى فى « ياطالع الشجرة » فإن هذه المسرحية كلام فارغ فمسرح اللا معقول فى العالم كله لايبعث على الضحك ، وكذلك مسرحية الحكيم لم تضحك أحدًا .. إن حرص الحكيم على أن يأتى بأشياء غريبة ، هو الذى دفعه إلى تلك المحاولة .. وبإخلاص فهذه المسرحية نوع من الهذيان العقلى .. وهى تجربة كما قلت فاشلة .. والدليل على فشلها أن الحكيم عدل عن هذا الاتجاه فيما بعد .

المسرحيات الشعرية

وعندما انتقل السؤال إلى المسرحيات الشعرية .. تلك المسرحيات التى كاد يخلو منها مسرحنا المعاصر .. فكان الرد :

– إن الشعر فى التمثيل قديم .. ولكن الرواية التمثيلية التى هى إلى الشعر الغنائي أقرب منها إلى التمثيل .. إنه شعر جديد ينقصه فن التمثيل .. ثم إن شعراءنا مثل شوقى وعزيز أباظه عندهم عادة غريبة وهى الانتقال من وزن إلى وزن بلامناسبة مما يجعل شعرهم المسرحى يفقد مزاياه .

ولا أدرى سبب تمسك عزيز أباظة بذلك .

إنتاج الشبان

كانت عقارب الزمن قد اقتربت من الثامنة .. معنى هذا أننى أخذت من وقت الدكتور طه مايقرب من الساعة .. فسألته السؤال الأخير وأنا أطوى أوراقى .. هل عنده من الوقت مايقرأ فيه للأدباء الشبان والناشئين .. أم أنه يستغرق وقته فى قراءة الآداب العالمية؟ وعرفت أنه يقرأ الكثير جدًّا من إنتاج الأدباء الناشئين .

وآخر ماقرأه فى هذا المجال قصة اسمها « أعاصير » تمثل الحياة فى الصعيد .. لعبد الستار فراج .. والقصة جيدة .. ومؤلفها ينتظره

مستقبل .. أما النصيحة التى تعب الدكتور طه حسين من ترديدها للشباب فهى أنهم لاهون عن القراءة الجادة .. تجذبهم أضواء السينما والتلفزيون وينشغلون بها عن قراءة أمهات الكتب التى تفتح لهم آفاقًا واسعة .. وتضئ أمامهم الطريق .. وتخلق منهم المثقف الواعى المستنير .. فالشباب الذين يعرفون اللغة العربية عليهم أن يدرسوا الأدب العربى القديم والحديث .. والذين يعرفون اللغات الأجنبية عليهم أن يطلوا من خلالها على العالم الرحب الفسيح للفكر والثقافة الأجنبية .

وهذه الوسيلة الوحيدة لكى ينتجوا شيئًا ذا بال .

ساعة كاملة قد مرت بسرعة وأنا أستمع إلى عميد الأدب .. وعندما خرجت إلى الطريق .. والمصباح الخافت يلقى أضواءه الشاحبة أمام فيلًا « رامتان ».. كان مازال صوت الدكتور طه حسين بلهجته الجميلة يتداعى إلى ذهنى .. ولكنه بقى سؤال واحد لم أسأله للدكتور طه حسين :

ترى : هل كان من الممكن أن يثرى الفكر العربى كله هذا الثراء .. لو أن طه حسين ظل فى قريته فقيهًا .. أو اكتفى بأن أصبح مدرسًا فى الأزهر ؟

عزيز أباظه

* إنه شاعر لعب دورًا كبيرًا فى حياتنا الثقافية .. وهو يشغل أيضًا عدة مناصب أدبية هامة ..

فهو عضو بمجمع اللغة العربية .. ومقرر لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب .. كما نال جائزة الدولة التقديرية .. وأصدر ٩ مسرحيات شعرية كما أن له مسرحية أخرى عصرية (زهرة) .

وعزيز أباظه من الذين أثير حول شعرهم الكثير من المعارك الأدبية فبينما البعض يراها امتدادًا لشوقى .. يراه البعض الآخر شاعرًا كبيرًا له نظرته الخاصة فى الحياة .. وله أسلوبه الخاص به .

وقد تعرض الشاعر لهجوم كبير عليه لولعه بالألفاظ الغربية التى لم تعد متداولة فى هذا العصر .. ولتمسكه بالشعر العمودى ..

والملاحظ فى عزيز أباظه . أنه لم يرد على نقد النقاد .. لهذا وجدت نفسى فى الطريق إليه لأجرى معه حديثًا أدبيًا اقترب من خلاله من أفكار هذا الشاعر .. وأعطى صورة واضحة للقارئ عن آرائه فى مختلف مشاكل الفكر والأدب .

وعندما جلست فى انتظاره فى شرفة منزله المطل على النيل ، كانت الشمس تسحب بقايا أشعتها لتسقط فى الأفق الغربى .

وجاء عزيز أباظه .. بقامته المديدة .. وبينما كان يهم بالجلوس كنت ألقى عليه السؤال الأول .. حول بداية ولعه بالشعر والشعراء .

ويجيب :

– بدأت الشعر فى صغرى الباكر . متأثرًا فيه بالجو الذى كنت أقيم فيه لأننى كنت مقيمًا فى أثناء الدراسة الثانوية والابتدائية مع أعمامى وكلهم أدباء . إلى جانب ذلك فهم حفظة للشعر الجيد . ولم أكن أسمع فى مجالسهم إلا إلقاء القصائد . أو مطارحة شعرية أو ماشابه ذلك . ومجالسهم هذه كانت تنتظم فريقًا من كبار أدباء ذلك الوقت . كان منهم حافظ ابراهيم والشيخ عبد العزيز البشرى ومحمد السباعى وصادق عنبر وآخرون .

ويصمت قليلا وهو يتذكر أول قصيدة كتبها .. إنه يتابع رحلة الذكريات :

– حين نقلت من السنة الثانية إلى الثالثة الابتدائية أهدانى والدى مركبة .

فكتبت إليه شاكرًا :

إنى لأكرم والدى وأعزه وأجله
فلقد هدانى مركبًا فوق الجياد محله

وكان الأستاذ الكبير الشيخ محمد الخضرى صديقًا لوالدى وكان كثير التردد علينا قال لى :

– إن هدانى هذه خطأ وصحتها أهدانى .

قلت له فى غرور الأطفال :

– إن الشاعر من حقه أن يستعمل الألفاظ على الصورة التى يراها . واليوم وبعد خمسين عامًا من هذا الحادث .. أنظر إلى نفسى فلا أجد نفسى شاعرًا ولانصف شاعر !

من وحى التاريخ :

قلت له :

– أعتقد أن معظم مسرحياتك تستمد موضوعاتها من التاريخ .. فهل كنت تريد بعث التاريخ القديم فى صورة مشرفة أم تريد أن تتخذ من التاريخ وسيلة لأغراض عصرية ؟

قال :

– هذا الموضوع أشار إليه الدكتور طه حسين فى مقدمة له كتبها

عن مسرحية أعتقد أنها « غروب الأندلس » وأصاب تمامًا مافى نفسى .. إذ قال مامعناه : إننى أتخذ من حوادث التاريخ أداة لأصور بها الواقع الذى نعيشه . فإذا رجعت إلى أغلب مسرحياتى التاريخية ، تجد أن كثيرًا منها ، وإن كان يدور حول حوادث تاريخية معروفة . فإنه ينصب على ما كان دائرًا فى هذه البلاد . وكانت هذه الوقائع هى المتعة التى استشعرها من التاريخ . وإذا أردت كلمة من كلمات الغرور مرة أخرى فأقول : إنها كانت الرسالة التى أريد آداءها .

تكريم المرأة :

قلت له :

– أريد أن أسألك عن أحب شخصيات مسرحياتك إلى نفسك . وإن كنت أود ألا يكون هو الجواب التقليدى : كلهم أبنائى !

ضحك عزيز أباظه ورد قائلا :

– أصارحك أن الشخصيات النسائية فى مسرحياتى لها فى نفسى المكان الأعلى ، وقد يكون ذلك متفقًا مع ماقاله بعض الأساتذة النقاد الذين شرفونى بنقدهم . من أن الحادث الجلل الذى وقع فى حياتى ، والذى كان من نتيجته ظهور ديوان (أنّات حائرة) ربما يكون هذا الحادث هو الذى كرم فى عينى المرأة ، وقد تكون هذه المرأة لبنى أو العباسة أو شجرة الدر .. أو .. إلخ .

ملحمة الشاعر :

قلت له :

- أعتقد أنك أشرت إلى حادث وفاة زوجتك الذى ترك ظلا على حياتك فيما بعد .. فهل كانت هى الملهمة ؟

صمت طويلا .. كأنه يسترجع تلك الذكريات العزيزة من جوف الزمن :

- إنها أول شخص خفق له قلبى كأخت أولا ، ثم صديقة الصبا ثانيًا ، ثم الزوجة بعد ذلك . فإذا صح مايقال من أن الشاعر لابد أن تكون له ملهمة . فهذه هى أولى ملهماتى ، وأرجوك أن تقف بسؤالك عند هذا الحد !

أوراق الخريف :

وقضايا العصر :

قلت له :

- أعتقد أن مسرحيتك أوراق الخريف كانت تعالج مشاكل معاصرة ، وهى أول مسرحية تصدر لك خرجت من أن يكون التاريخ مصدرا لها .

قال :

- إنها أول مسرحية بالفعل ليست من مصدر تاريخى ، وهى

أيضًا تعالج موضوعات عصرية بلغة الشعر . وقبل أن أنفذ هذه المحاولة ترددت كثيرًا علمًا منى أن منزلا به مثلا تليفون وفريجدير وماشابه ذلك وأهله مصريون يقيمون بجهة القلعة مثلا ، إن منزلا كهذا حين تكون أداة التفاهم بالشعر حالة لاتهضم بسهولة . على أننى صممت على إجراء هذه التجربة إتباعًا لما صنعه ت . س . إليوت .

– هل مثلت هذه المسرحية على المسرح ؟

– لم تمثل على المسرح ، فلا أستطيع أن أعطيك فكرة عن الظروف التى كان يمكن أن تحيط بها عند المشاهدين . ولكن أستطيع أن أؤكد لك أن من قرءوها أو سمعوها ممثلة فى الإذاعة ، لم يساور أغلبهم الشعور بالاستغراب . وبقدر ما أذكر كانت هذه المسرحية قائمة على أزمة حب قديم ثار لظروف هيأتها الحوادث بعد أن كان قد خبا ، وكان من نتائج ذلك أن قام صراع عنيف فى الأسرة . بين الأم وابنتها وبين الزوج الذى عالج المشكلة بكثير من الصبر . وانتهت المسرحية على أن البطلة قد آثرت بيتها وزوجها وأولادها على ماعدا ذلك .

قلت له :

– الواقع أن المسرحية تكتب لتأخذ طريقها أصلا إلى خشبة المسرح . فما السر فى عدم تمثيل مسرحية أوراق الخريف ؟

– هذا السؤال ينبغى ألا يوجه إلى ، إنما يوجه إلى المشرفين على

التمثيل فهذا شأنهم وإذا كان لى أن أبدى رأيًا .. وهو مجرد افتراض - فالذى حصل أيام ظهور أوراق الخريف - أن شئون المسارح والتمثيل واختيار المسرحيات كانت قد انتقلت إلى أيدى إخواننا التقدميين .. ويحتمل أن تكون المسرحيات الشعرية ليست مما يتلاءم مع الخطة التى رسموها للمسرح . ويحتمل كذلك أن يكون الاعتراض منصبًّا على المؤلف وكل وقت له أذان كما يقول المثل الفلاحى !

الألفاظ الغريبة :

قلت له :

- إن أصابع الاتهام تشير إلى أن أسلوبك صعب وأنك مغرم بالألفاظ الغريبة .. فما دفاعك عن هذا الاتهام ؟

وبهدوء يجيب :

- لا أظن أننى استعمل ألفاظًا فيها غرابة ، لشىء واحد ، هو : أن أشد ما اعتز به هو موسيقى الشعر وديباجته قبل معانيه وسائر فنونه .

ولكن الذى يحدث هو أننى استعمل ألفاظًا غير دائرة على الألسن ، وقصدى من ذلك إحياؤها ثقة منى برشاقتها خدمة للأدباء الناشئين . أما الذين ينتقدون أسلوبى فيقولون : إنه أسلوب مقلق على العربية أو ماشابه ذلك ، فربما كان أساس ذلك ، إحاطة هؤلاء

النقاد الكافية باللغة وأساليبها الجزلة . وفى هذا الاتجاه خلاف شديد بين هذا الذى أخذت به نفسى ، وبين أصدقائنا الذين يأخذون بمذاهب الأب الواقعى . أما من منا الآخذ بالمنهج الأصح ، فذلك متروك لتذوق القراء !!

نقد النقاد :

سألته عن عدم رده على مهاجميه من النقاد.. فقال :

– من عادتى ألا أرد على النقاد لأنني لا أضيق بالنقد إطلاقًا ، مادام هذا النقد مركزًا على أعمالى واتجاهاتى الأدبية . ولايداخلنى الغضب حتى لو اشتد هذا النقد ، لسبب واحد هو : أننى أعالج الأدب كنوع من الهواية . أقول . ما أريد أن أقوله ، وليس لى بعد ذلك على أحد سبيل .. أما خروج الناقدين عن التعرض لمسرحياتى أو أدبى بصفة عامة إلى المساس بشخصى مساسًا لايتصل بالنواحى الأدبية ، فهذا أيضًا اعتدت ألا أرد عليه . ولكن اعتدت فى الوقت نفسه أن أسقط أصحابه من حسابى !

وعندما سألته عن آخر أعماله الأدبية قال :

– انتهيت أخيرًا من مسرحية عصرية اسمها « زهرة » . كتبت على أساس موضوع (قدرة الأئمة) التى كتبها الشاعر الإغريقى يوروبيدس . وإن كنت قد تناولت الموضوع من زوايا أخرى .

معاوية بن أبي سفيان :

قلت له :

- بعيدًا عن الأدب . أحاول أن أسألك سؤالا أخيرًا .. فمن المعروف أنك تحب البحر حبًّا عميقًا . فهل هذا جزءًا من حبك للطبيعة ؟

- البحر له جمال وله متعة .. وهذه المتعة تبعث الأمل فى الإنسان .. ومن الجائز أن يكون حبى للبحر أن به جمالا لايتبينه تمامًا إلا من يطيل النظر إليه . وأن به سعة من شأنها أن تنبت الأمل وتغذيه . أما وقد ذهب الشباب مأسوفًا عليه أشد الأسف ، فمن الجائز أن يكون حبى للبحر الآن راجعًا إلى أن النظر فيه يخرج الإنسان عن مشاكل الحياة وهمومها ولو إلى حين .

وينتهى حديثى مع الشاعر عزيز أباظه .. وأطل بنظرى من شرفة منزله حيث ينساب النيل فى دعة ولين .. متهاديًا يبعث موسيقى أعذب من الشعر .. بينما يظهر القمر فى الأفق الشرقى يخلط أضواءه الشاحبة بصفحة الماء وعزيز أباظه يتأمل النظر فى شرود الشعراء .

على أمين

كنت قبل أن أصبح محررًا فى أخبار اليوم ، أقرأ كل ما يكتبه على أمين . وكانت تبرز فى ذهنى العديد من عمليات الاستفهام .. فكتاباته متفائلة .. وما كان يكتبه فى عموده اليومى « فكرة » فيه رؤية مستقبلية لما سوف يقدمه العلم لمستقبل الإنسانية .. ومن فرط إيمانه بالمستقبل ، كنت أتصوره إنسانًا خياليًّا .. فالعالم الذى يتحدث عنه هو عالم « الأزرار » الذى سوف تحل كل مشاكل البشر .. يمكنك وأنت جالس على سريرك .. أن تحقق كل ماسوف تحلم به .. وتصورته فى لحظات أخرى أشبه بالكاتب الإنجليزى .. هـ . ج . ويلز ، وتخيلته مرة أخرى الكاتب الفرنسى جول فرن .. وكلا الكاتبين كان يعيش المستقبل .. وماسوف يحققه العلم من

إنجازات مذهلة سوف يغير من مجرى الحضارة الإنسانية .. وسرعان ماعدت أفكر فى عقلية هذا الرجل بعد أن أصبحت محررًا بنفس المؤسسة .. وقلت لنفسى : ليس من المعقول أن يكون كل الحالمين خياليين .. فما أكثر الأحلام التى تحولت إلى واقع .. أخيلة فرن ، وويلز .. تحول الكثير منها إلى واقع ، وعلى أمين وشقيقه مصطفى أمين .. أسسا أكبر مؤسسة صحيفة فى الشرق .. وهل الأعمال العظيمة .. سوى أحلام عظيمة ؟ .. بل إن كثيرًا من الفلسفات القديمة والمعاصرة .. وجدت أن أحلام الإنسانية تبدأ بالتصور .. فأنا أتصور العمارة قبل أن أقوم ببنائها .. والإنسان نفسه فى نظر بعض هذه الفلسفات ، مشروع رجل له رؤياه الخاصة فى الحياة والناس كالفلسفة الوجودية مثلا .

وأول مرة رأيت فيها على أمين عندما ذهبت إلى مكتبى فى مجلة الجيل .. كانت بالدور العاشر ، وكان مكتبه هو بالدور التاسع .. وكان نهاية المصعد هو الدور التاسع أى لابد أن تمر بهذا الدور عند صعودنا إلى مكاتبنا فى المجلة .. ورأيته متجهًا إلى مكتبه .. توقفت أمامه عندما رآنى .. خيل إلى أنه ينتظر إنسانًا ما .. أو أحد كبار المحررين خلفى .. ونظرت خلفى فلم أجد أحدًا .. كان واقفًا .. والسيجارة الشهيرة بين فمه .. وتقدمت.. فإذا بابتسامة عريضة تملأ وجهه .. ثم يمد يده ليصافحنى دون أن يعرفنى !

وبعدها ما التقيت به مصادفة إلا وصافحنى بنفس هذه

الابتسامة .. وكانت هذه الابتسامة هى التى أذابت المسافة بينى وبينه ، حتى دون أن يدرى ماهو اسمى !

وأحببت فى هذا الرجل تواضعه وصفاء نفسه .. وفكرت مرة أن أقابله .. وكانت المناسبة الاحتفالات بعيد الأم .. فقد كان حبه الشديد لأمه .. هو الذى جعله مشغولا بكل الأمهات .. لسعادة ملايين الأمهات .. فكتب ونادى .. وأصر على الدعاء لجعل حب الأم عيدًا لها .. وواجبًا على كل طفل وكل رجل وكل امرأة .

كان على أمين فى مكتبه عندما دخلت عليه سيدة .. على وجهها مسحة من ألم مكبوت .. وفى عينيها بقايا دموع .. إنها قامت حتى جعلت من ابنها شيئًا ، فلما أتم دراسته ، تطلع إلى زوجة تملأ حياته .. وعندما وجدها تناسى أمه .. وخرج دون أن يشكرها بكلمة .. وأحست الأم بقلبها يتمزق ، وتم تساؤل فى أعماقها .. ترى هل تنتهى مهمة الأم بزواج ابنها ؟ وهل هى مجرد قنطرة لأولادها فإذا كسب واحد منهم قوته بنفسه تناسى فى غمرة حياته أمه التى وهبته حياتها ؟ واستمع لها على أمين .. فتح لُها قلبه وكلمات الأم تنساب فى كيانه .. وخياله يرسم الصورة التى يجب أن يعبر بها عن جمال الأمومة وقداسة الرحم .

وأمسك قلمه .. يحفه إيمان عميق بدور الأم الخالد على مسرح الحياة ليكتب مامعناه : إننا ننسى الأم وتضحياتها ، ولانذكرها إلا عندما يختطفها الموت .

فلماذا لانقيم لها عيدًا قوميًا فى بلادنا وبلاد الشرق .. نقدم لها فيه الهدايا ، ونشعرها فيه بجلال الأمومة .. وقال :

« اختاروا أنتم اليوم .. وأنا أحيله لكم عيدًا للشرق وعيدًا للقلوب » .

وانهالت ألوف الخطابات .. البعض اقترح أن يكون هذا اليوم يوم ميلاد السيدة عائشة .. وآخرون اقترحوا يوم ميلاد حواء .. أو أم المصريين .. إلخ .. ولكنه اختاره يوم ٣١ مارس الذى بدأ فيه الربيع .. فصل الحب .. فصل الحياة .. فصل تفتح الأزهار .. وأصبح هذا اليوم عيدًا للأم .. استطاع أن يجعل لها فى كل قلب تمثالا يرمز إلى الوفاء .

ولا يأتى هذا اليوم إلا تذكرت الأم .. كتاب الحنان الخالد .. وتذكرت على أمين .. الذى نادى بأن يكون لها عيد قومى فى بلادنا ..

جلست مع على أمين .. وكان يومها رئيسًا لمجلس إدارة دار الهلال .. السيجارة لاتفارق فمه .. والابتسامة أيضًا لاتفارق فمه .

وسألته :

– إلى أى حد نجح عيد الأم فى بلادنا ؟

وأجاب :

– لقد أصبح عيد الأم عيدًا قوميًا فى بلادى والبلاد العربية .. ونجح فى .. إسعاد ملايين الأمهات ، وثبت من الإحصائيات أن

مجموع المشتريات فى هذا العيد من المحلات التجارية ، تفوق المشتريات فى العيد الصغير وأعياد الميلاد .. ولكنى أحب أن أنبه أن جمال هدايا العيد .. هى أن يقدمها الابن من المصروف الشخصى الذى اقتصد بعضه على مر الأيام .. لا أن يدفع الأب ثمنها كما يحدث فى بعض الحالات .

قلت له : ينادى البعض بتغيير عيد الأم إلى عيد الأسرة فما رأيك ؟

قال : إن الذين يطالبون بتغيير اسم عيد الأم هم تنابلة السلطان .. الذين عجزوا عن خلق عيد جديد .. فراحوا يحاولون سرقة عيد ناجح بتغيير اسمه .. إن أمامهم ٣٦٥ يومًا فى كل سنة ويستطيعون أن يختاروا يومًا من هذه الأيام .. يطلقون عليه اسم يوم الأسرة .. فإن لعيد الأم فكرة .

ولعيد الأسرة فكرة أخرى .. ومن السذاجة الخلط بين الفكرتين ..

قلت له : ماذا كنت تقصد عندما ناديت بفكرة عيد الأم ؟

قال : قصدت أن نكرم الإنسانة .. أن نكرم الأم .. أن نشكر الإنسانة التى تعطينا عمرها وعرقها وسعادتها .. ومع ذلك يختفى اسمها .. فعندما ينجح الشاب يحمل معه إلى القمة اسم والده .. أما الأم فينسى الناس جهدها وسط الهتاف لولدها .

قلت له : لو كانت أمك على قيد الحياة .. فماذا كنت ستقدم لها ؟

قال : لو كانت أمى على قيد الحياة .. لقدمت لها مجلدًا يحتوى على المقالات التى كتبتها للدعوة لعيد الأم .. حتى أصبح عيدًا قوميًّا فى بلادى .. فإننى أعرف أنه كان يسعد أمى .. أن تعرف أن ابنها نجح فى إسعاد ملايين من الأمهات .

قلت له : ماشعورك فى يوم الأم ؟

قال : إننى أشعر بالسعادة ، لأننى استطعت أن أضيف عيدًا إلى أعياد بلادى ولم يكن سهلا .. فإن إقامة المآتم والجنازات .. أسهل جدًّا من إقامة الأفراح والأعياد .. ثم إن كل فكرة جديدة .. تلقى مقاومة ضخمة .. فإن كل الأقلام تحشد فجأة .. لدفن الفكرة الجديدة .. تحت تراب السخرية والاستخفاف ..

وتذكرت كلمة كتبها على أمين فى إحدى أفكاره :

- « الطوب والزلط .. هو الذى حول عيد الأم إلى عيد قومى تحتفل به ملايين البيوت فى بلادى والبلاد العربية .. ولولا هذا الطوب .. لما تحولت الفكرة من حروف صغيرة يمسحها الزمن من الورق .. إلى مشاعر كبيرة .. تعيش فى قلوب الملايين .. إن الطوب لايدفن الأفكار .. إن الحجر الأساسى فى بناء كل فكرة ناجحة » .

وعدت أقول له : قدم كلمة للذين فقدوا حنان الأمومة فى عيد الأمومة .

قال : هاجم بعض الكتاب فكرة عيد الأم .. لأنها تذكر اليتامى بأمهاتهم .. فيذرفون عليهن الدموع .. وهذه الدموع لاتحرق قلوب اليتامى .. إنما تنقيها وتهذبها .. وأنا أذهب كل يوم ٢١ مارس إلى قبر أمي .. وأضع عليه باقة من الورد .. وأقرأ عليها الفاتحة .. ثم أقول لها شكرًا يا أمي .. وفى نفس الوقت أبحث عن أم تغيب ابنها .. وأحاول أن أسعدها اليوم نيابة عن ولدها .

وتركت كاتبنا الكبير على أمين .. الذى جعل من ٢١ مارس قاعدة ضخمة تنطلق منها أجمل مافى الحياة من قيم ومثل ، وإخلاص ووفاء للأم .. واهبة الدنيا وصانعة الحياة وكأنى أسمع حفيف قلمه .. يوم كتب :

« إننى أشعر أن سيدنا رضوان .. لم يتركنى طويلا.. فى طابور الواقفين أمام الجنة .. لن يطالبنى بتقديم أوراق تحقيق الشخصية وشهادة حسن السير والسلوك .. لن يحولنى إلى قسم المراجعة والحسابات .. إن تفاؤلى يوهمنى بأننى سأدخل الجنة .. ونجاح فكرة عيد الأم فى بلادى .. هى تذكرة الدخول التى سأقدمها إلى سيدنا رضوان » .

فتحى رضوان

أكثر من ساعتين جلستها مع الأديب السياسى فتحى رضوان حاولت أن أناقشه فيها مناقشة عامة تجمع بين السياسة والأدب . والذى يقرأ مؤلفاته .. يحس أن هناك خيطًا يربط كل إنتاجه الفكرى والأدبى . هذا الخيط هو الإنسانية ككل واحد .. فجميع الأفكار تلقح بعضها بعضًا .. وتؤثر فى بعضها البعض .. فلابد أن يقف الإنسان – على حد تعبيره – على شاطئ الفكر ، كما يقف الأطفال على شاطئ المحيط يرون كل موجاته تظهر وتختفى .. تعلو وتهبط ، ولكنها فى آخر الأمر جزء منه وحركة فيه .

وبدأ حديثى معه عن السبب الذى جعله يكتب كل مسرحياته بالفصحى باستثناء مسرحية واحدة هى « شقة للإيجار » وكان رده :

– المسرحيات التى كتبتها فيما عدا « شقة للإيجار » .. مسرحيات موضوعاتها وشخصياتها أليق بها أن تعبر باللغة العربية الفصحى . لأن الموضوعات التى يمكن تسميتها تجاوزًا بالفلسفية . تبدو مضحكة لو صيغت باللغة العامية . هذا فضلا عن أملى أن تبسط الفصحى وتطوع فى أيدى المؤلفين المسرحيين . حتى تصبح لغة المسرح التى يفهمها الجمهور وهذا أمر سيتم تدريجيًّا مع انتشار الثقافة . وازدياد عدد القارئين .. لأن هذا الانتشار سيرتفع بمستوى لغة الخطاب اليومى .. فتقل الجفوة بين لغة الكتابة ولغة الحديث اليومى . كما هو واضح بين الطبقات المثقفة .

المسرح العربى

وانتقل بنا الحديث إلى المسرح العربى .. هل هناك مسرح عربى بحت . أم أن المسرح المصرى امتداد للمسرح الأوربى ؟ فقال :

– لاتعارض بين كون المسرح العربى امتدادًا للمسرح الأوربى ، وبين أن يعبر عن مشاكلنا . فالقلم الباركر مثلا مستورد . ولكن يكتب به المواطن مايدور فى رأسه فى أى وطن .. فالشكل المسرحى هو واسطة لنقل الأفكار أما الأفكار فمقرها رأس المؤلف .

المسرح والقيم الجديدة

قلت له : هل عبر المسرح العربى عن القيم الجديدة لمجتمعنا ؟

قال : القرارات الاشتراكية صدرت منذ ثلاث سنوات . فلا يمكن أن يحدث تحول ولو مادى فى أى مجتمع فى ظرف ثلاث سنوات . فالمجتمع الروسى مازال باقيًا ببعض سماته فى مجتمع الاتحاد السوفيتى .. وستنقضى أجيال قبل أن ينتزع المجتمع الروسى نفسه من قيم المجتمع القديم ، لأن المحافظه من خصائص البشر . ولأضرب مثلا .. إننا ندين بالإسلام منذ أربعة عشر قرنًا ، ومع ذلك لانزال نرى طقوسًا فرعونية فى كثير من وجوه الحياة المتصلة بعاداتنا وبالآخرة . ومايتصل بهذه الممارسة كما يحدث عند الدفن . فالطقوس فرعونية منافية لتعاليم الدين الإسلامى .

فلا المسرح ولا الأدب بكل أشكاله القديمة ، نجح فى أن ينقل التطورات الحديثة .

الأدب والسياسة

قلت له : عرفناك سياسيًّا . وعرفناك أديبًا . ففى أى اتجاه سرت أولا ؟ .. وماهى العلاقة بين الأدب والسياسة ؟

قال : يجب أن تخبرنى أولا : ماهو المقصود بالسياسة ؟ فإذا كان

المقصود بها تغيير الأوضاع السيئة إلى أوضاع أحسن ومكافحة أنظمة وأشخاص يسيئون إلى المجتمع ، فالأدب هو أداة السياسة الأولى فى هذا السبيل .. فهو طليعة الإصلاح .. وإلا اخضرم الاضطهاد .. وأنشط أعداء القلم . والأدباء هم المبشرون بالتطور . والمؤمنون بالحرية . ووسيلتهم الأولى فى التفسير بالفكرة .. هى الكلمة بصورها المختلفة .. الحديث والخطبة والمقالة والقصيدة وكل مايثير خواطر الأفراد ثم الجماهير ويجمعهم على الرأى الجديد ويستثيرهم ضد النظام القائم .

ويصمت فتحى رضوان ويستطرد قائلا :

- إذن فالسياسة والأدب توءمان أو لعلهما شىء واحد يحمل اسمين . فالأنبياء وهم الصورة العليا للعمل السياسى بالمعنى الذى اتفقنا عليه ، كان أداؤهم دائمًا قدرة على البيان تجعلهم فى الذروة من مراتب الفنانين .. وقدرتهم على إنتاج أدب رفيع يتمتع بموسيقى خلابة ، وثراء فى خلق الصور الأدبية يعجز خصومهم من اللحاق بها . أو محاكاتها . ولايمكن تصور أديب حتى ولو كان مؤمنًا بنظرية الفن للفن ، يقول كلامًا ما ، دون أن يقصد به التأثير فى قلوب الناس وعقولهم ، فإذا ما أثر الأديب فى العقول وفى النفوس .

فقد أثر فى المجتمع .. ومادام المجتمع قد تأثر ، فقد حق لنا أن نقول أن حدثًا سياسيًّا قد وقع . فالتطور فى المجتمع هو هدف

السياسة ، وعند وقوع هذا التطور تتطور السياسة .. أى أوضاع الحكم وأساليب التفكير عند الحاكمين أرادوا أو لم يريدوا .

تولستوى وغاندى :

وصمت فتحى رضوان وسرح بفكره قليلا عندما طلبت منه تفسيرًا عن سبب تعلقه بالفنان الروسى تولستوى والزعيم السياسى غاندى .

– لهذا تفسيران : أحدهما تاريخى ، وثانيهما مزاجى . فالسبب التاريخى : هو أن القدر ساقنى إلى طريق تولستوى فى فترة مبكرة من حياتى فواليت القراءة فيه . وأصبحت له أسبقية عندى . والسبب المزاجى هو أن نظرة تولستوى إلى الأمور . ومزجه بين الدين المجرد . وتأثره بموعظة الجبل للسيد المسيح ، هذه الأمور كلها تجمعنى به ، وتزيد أثره فى نفسى ، فضلا عن أن تولستوى متنوع القدرات . فهو قصاص ومؤلف مسرحى وكاتب مقالة . وصاحب فكرة . وقد حدث أكثر من تلاق بينى وبينه فنظرته إلى تفسير حياة المسيح ، تكاد تكون مطابقة للفكرة الإسلامية . ومآخذه على شكسبير كانت تتردد فى نفسى ، فلما قرأت مقالة عنه كان ذلك المقال تعبيرًا عن معنى ترددت فى أن أفضى به للناس . ولو أنه بالغ نوعًا فى نقده لشكسبير . وتحفظه فى الإعجاب ببرنارد شو له نظير عندى .. كل هذا جذبنى إلى تولستوى ، وخاصة أن أثره

امتد مابعد الحرب العالمية الثانية فى شخص تلميذه غاندى الذى تأثرت به وأعجبت بمنهجه . كل هذا مع ملاحظة أن تولستوى فتح باب الأدب الروسى أمامى . فقرأت دستوفسكى وتشيكوف وترجنيف وأخيرًا جوركى . فدخلت بذلك عالمًا جديدًا خلابًا كان فى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وكان ذلك فتحًا فى الأدب وثورة فى التفكير .

المفكر البهلوان :

قلت له : إن تولستوى حاول أن يجرد شكسبير من المكانة التى يستحقها كمؤلف مسرحى ، واعتقد أن شكسبير إن لم يكن هو القمة . فإنه يقف فى القمة مع غيره .

– طبعًا أنا لا أذهب مذهبه المتطرف هذا . ولكنى مع تولستوى فى أن بناء مسرحيات شكسبير المأخوذة من أصول سابقة عليها تصدم العقل لانطوائها على تفاهات فى سرد الحوادث وغرائب تبلغ حد السذاجة .. ولايقتضيها سياق الحوادث المنطقى فضلا على أننى لم أتبين على وجه جلى فلسفة شكسبير ونظرته إلى الحياة . فهى بناء غير متكامل لايدعو كثيرًا إلى الاحترام :

– ورأيك فى برنارد شو ؟

– كنت آخذ عليه طوال مطالعاتى على مر السنين . أنه شديد الاعتداد بنفسه . وراغب طوال الوقت فى أن يبهر قارئه . حتى أنه

يصلح أن نطلق عليه أنه بهلوان فكرى . إن الإنسان يستطيع أن يقول عنه ماأبرعه وهويرقص على الحبل ! ولكنه لايستطيع أن يقول ما أصدقه وما أخلصه .

فن التعب العصبى :

ويتحدث عن الموجة الجديدة فى المسرح فيقول :

– أنا أعتقد أن موجة اللا معقول . أو مسرح العبث ظاهرة من مظاهر التعب العصبى والإرهاق النفسى الذى انتاب أمم الغرب . بعد الحرب العالمية الثانية . وموجات التشاؤم بمستقبل الإنسانية بعد أن طالت فترة الحرب الباردة ، وأحس الكثيرون أنه لاسبيل إلى النجاة . وأن جميع الطرق مسدودة فى وجه الإنسانية . وأن الأمر يتساوى فيه الهذيان بالكلام الرصين الموزون . إلا أننى من الذين يؤمنون بأن العقل وحده لايكفى أن يكون المعين الوحيد للعمل الأدبى . وأن طاقات اللاوعى واللاشعور وقوى الوجدان ، يجب أن تزال من أمامها بعض السدود . وإلا جفت ينابيع الفكر الإنسانى . وانتابنا شعور من يسير فى طريق لاتتبين له غاية ويتساءل إلى أين ؟ ما الذى يقال وما الذى لايقال .. وهل هناك مايدعو لأن يقال شىء ؟

المرأة :

س : هل يمكن أن تسير المرأة فى خط موازٍ مع الرجل من الناحية الفكرية ؟ .

جـ - أعتقد أن المرأة لاتختلف فى مؤهلاتها الذهنية عن حقيقة المؤهلات الذهنية للرجل . وإن كان من الممكن القول : إن الاختلاف فى الثمرة الأدبية لعمل المرأة ، تختلف عن الثمار الأدبية للرجل بقدر اختلاف صوت المرأة عن صوت الرجل . فعلماء الأصوات يفرقون بمعاييرهم ومقاييسهم الآلية بين صوت المرأة وصوت الرجل . ولكن الوظائف التى يؤديها الصوت الأنثوى لاتختلف عن وظائف صوت الرجل . والحكم على المرأة لايصبح عدلا إلا بعد أن تتحطم جميع القيود الاجتماعية والفكرية عن عقل المرأة ويديها ورجليها . فالفرق بين الرجل والمرأة لايقل من الناحية الفكرية عن ثلاثة آلاف سنة أو أكثر . فمنذ بدء الحضارة والمرأة لايتاح لها أن تشارك فى الإنتاج الذهنى. ولاتعد له .. وإن أتيح لها التذوق بشىء من المعرفة . فإن ذلك يكون فى المجتمع من قبيل التلطف ، وتزيين القاعات الأدبية بزهرات الجنس اللطيف . فلابد لنا أن نسبق جيلا أو ثلاثة حتى يؤخذ إنتاج المرأة مأخذ الجد . وتحصل المعرفة على مرأى ومسمع المجتمع وبموافقته وإقراره وتقديره وشعوره بضرورته ولزومه .

الحرب والسلام

وبمناسبة حديثى معه حول كتابه عن الحرب والسلام . برز فى ذهنى تساؤل : هل يمكن أن يسود عالمنا القلق المتوتر المشحون سلام حقيقى ؟ وماهى الوسيلة لتحقيق هذا الأمل الذى ظل يراود البشر عبر القرون؟ وإن كان فى زماننا الحاجة ماسة وضرورية للسلام .. لتجنب حرب نووية تعيد الإنسانية ملايين السنين إلى عصور الناب ؟

قال : إن الإنسانية عانت من الحروب على مر الأجيال .. وأكاد أقول : إن الحرب لايمكن تجنبها . فعندما قامت الحرب العالمية الأولى بكل أهوالها ، لم يمنع ذلك من قيام الحرب العالمية الثانية ببشاعتها وآلامها . وهكذا فى ظل التوازن الذرى تقوم الحرب فى فيتنام .

وعندما صمت الكاتب الفنان فتحى رضوان ، كانت ترتسم أمام مخيلتى خريطة العالم بما فيه من مشكلات وخلافات ، وكان ثمة سؤال حائر يدور فى ذهنى : ترى هل تترك الإنسانية الحرب كوسيلة لحل مشكلاتها . وتصبح الحرب مجرد صورة كئيبة من الصور التى مرت بالبشرية فى أزمنتها السابقة ، ويتطلع العالم إلى غد ترتفع فيه أغصان الزيتون . أم ستظل الحرب هى السمة البغيضة التى تلازم الإنسانية منذ الأزل.. وإلى الأبد ! ؟

محمد زكى عبد القادر

محمد زكى عبد القادر ليس فى حاجة إلى تقديم .. فهو معروف ككاتب .. ومعروف كأديب .. ومعروف كسياسى أيضًا .. فله مؤلفات فى كل هذه الميادين .. كما كانت مجلته – الفصول – التى كان يصدرها منبرًا ثقافيًا مستنيرًا يعكس ثقافة العصر بصورة موضوعية وواعية .

وهو أيضًا معروف بشفافية أسلوبه .. وتألق عباراته .. وشاعرية نظرته للأمور والحياة .

من هنا ، كان من البديهى أن يكون أول سؤال أطرحه عليه عن الروابط بين الأدب والسياسة والقانون .. أو بمعنى أدق عن الخط الذى يربط إنتاجه فى هذه النواحى .

ويجيب :

– الرابطة قائمة بين كل أنواع الثقافة .. فلا يمكن الفصل بين القانون والأدب ، والسياسة .. كما لايمكن الفصل بين أى نوع من أنواع المعرفة الأدبية وأنواع المعرفة الأخرى . فالمعرفة متكاملة يكمل بعضها البعض الآخر .

والدراسة التى يختارها الإنسان فى مرحلة الجامعة مثلا ليست إلا نوعًا من التخصص .. ولكنه ليس من المحتم أن يكون هو الاستعداد الوحيد .. أو الموهبة الوحيدة .. وقد يكون الاختيار فى كثير من الأحيان ليس نتيجة استعداد أو موهبة .. بل يكون إملاء من الظروف .. ويحدث فى كثير من الأحيان أن يتخرج الطالب فى كلية معينة . وتتجه به الحياة إلى عمل ومصير يختلف اختلافا تامًّا عن نوع التخصص الذى اختاره فى دراسته الجامعية وعرفنا من كبار الساسة من درس الطب .. ومن كبار الأدباء من درس القانون والاقتصاد .. فالعقل الإنسانى لاحدود لقدرته .. ولاحدود لتخصصاته إذا كان من هذا النوع من العقول المنفسحة النظرة التى ترى الحياة كلًّا متكاملا أكثر مما ترى فيها تخصصات .

نخلص من هذا ، إلى أن الربط بين القانون والسياسة والأدب ممكن .. كالربط بين أية فروع أخرى من فروع المعرفة .. ما دامت النظرة إليها قائمة على أنها ترتبط بالإنسان .

فإذا رجعنا للرابطة التى تربط بين القانون والأدب والسياسة ..

وجدنا أنها رابطة أوثق ماتكون بين هذه الفروع الثلاثة مماهى بين فروع المعرفة الأخرى .

- لماذا ؟

- لأن القانون ينظم علاقة الأفراد بعضهم والبعض الآخر .. والسياسة تنظم علاقة الأفراد والحكم .. والأدب يعبر عن وجدان الإنسان .. إزاء الناس والحياة والكون .

ويضرب مثلا - بتشرشل وهو سياسي محترف كان يستخدم الأدب ويجعله فى خدمة السياسة . وفى كتبه التى عالج بها شئون الحرب والسياسة كان أديبًا من الطراز الأول، فخدم الخط السياسى الذى اختاره لحياته عن طريق النزعة الأدبية التى كانت واضحة فيه .

صمت قليلا ويعود يضرب أمثلة عن العلاقة بين الأدب والقانون والسياسة ويستطرد قائلا :

- وحتى أواسط القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، كان أكثر رجال السياسة والحكم فى أوربا وفى الشرق من رجال القانون . أما الصلة بين القانون والأدب فواضحة هى الأخرى . ولدينا فى مصر كثيرون من رجال القانون ممن اشتغلوا بالأدب والسياسة ، وكان لهم فيهما دور بارز غطى على شهرتهم كرجال قانون من أمثال الدكتور هيكل وعبد القادر حمزة ومصطفى كامل وسعد زغلول ولطفى السيد وغيرهم .

قلت له :

– كانوا يقولون : إن السياسة هى فن أخذ الممكن .. فهل هذا التعريف للسياسة صحيح ؟ .. وما آخر تعريف للسياسة ؟

يبتسم وهو يشعل سيجارته ويرد على الفور :

– حقيقة أن مفهوم السياسة فى هذا العصر تغير عما كان عليه فى العصر الماضى . فقد كانت السياسة فيما مضى قائمة فى أكثر الأحيان على الغموض وإخفاء الغرض الحقيقى وراء الاتفاقات السرية والمعاهدات . كان المبدأ الذى يحكم السياسة فى أوروبا مثلا ، هو مبدأ توازن القوى . ومبدأ خير وسيلة لمنع الحرب هو الاستعداد للحرب . وكان هدفها بصفة عامة مرتبط بهيبة حاكم الدولة . ولم يكن للشعوب فى هذا الوقت وزن كبير . وكان العصر عصر إمبراطوريات متسلطة راغبة فى المزيد فى المزيد من التوسع وإخضاع أكبر عدد ممكن من المستعمرات . وإيجاد أسواق للمنتجات الصناعية المتزايدة .

أما فى هذا العصر .. فقد انتهت الإمبراطوريات وانتهى الاستعمار أو كاد ، وقامت منظمة الأمم المتحدة التى ينص ميثاقها على نبذ الحرب كوسيلة لحل المنازعات . وعلى حظر التوسع عن طريق القوة ، مع الاعتراف بحق الشعوب فى الاستقلال وتقرير المصير .

إذن فقد تغير مدلول السياسة ونطاقها وأغراضها ومداها .

وتغيرت تبعًا لذلك أساليبها .. وليس معنى تغيير الأساليب أنها فقدت المضمون الأساسى لها . فلا تزال كما كانت فى خدمة الدولة والشعب . ولكنها ليست فى خدمة الحاكم .

ثم ماحدث فى العالم من تقدم سريع فى وسائل المواصلات أدى هو الآخر إلى ظاهرة ملحوظة فى هذا العصر . وهى اختفاء دور الدبلوماسية إلى حد كبير .. إذ أصبح الالتقاء بين رؤساء الدول . أو وزراء خارجيتها . أو كبار المسئولين فيها ميسورًا ومتكررًا كلما وقع مايدعو إلى هذا الالتقاء مما جعل دور السفراء أو رجال الدبلوماسية بصفة عامة يفقد الكثير من أهميته التى كانت لهم فيما مضى .

فالقول بأن السياسة هى فن أخذ الممكن – قول يصدق فى عمومه على العصر الماضى . وعلى هذا العصر ، كل عصر يجئ إذا ظلت السياسة ضرورة من ضرورات الشعوب والحكومات وكما يقال : إن السياسة هى فن أخذ الممكن .. يقال أيضًا : إنها فن إقناع الآخرين بما تريد أن يقتنعوا به .

– وإذا وصلنا إلى تعريف أكثر دقة ماذا تقول ؟

– نقول : إنها فن تتلخص فيه كل الفنون . كأن تقنع الآخرين بما تريد ، يتطلب أن تكون على قدر عظيم من الثقافة والمعرفة وعلى قدر آخر عظيم من تذوق الأدب والفن . حينما أقول : الأدب والفن ، أعنى بمدلولهما الشامل . وبكل أدوات التعبير . الشعر والأدب والموسيقى والتصوير والنحت .. كل أولئك يخدم السياسى

ويجعله أقدر على بلوغ مايريد .

- ما الصفات التي يجب توافرها فى السياسى ؟

- السياسى أراد أو لم يرد . قصد أو لم يقصد . مرآة لشعبه وصورة له .. وكلما كان واسع الثقافة والمعرفة .. قادرًا على أن يجذب الآخرين إلى رأيه ، أحس الآخرون كأنما فى شعبه سمات ولمحات من هذا كله .

وبطبيعة الحال لم أذكر كل ماينبغى أن يتحلى به السياسى من صفات .. ولكن ذكرت بعضها . فمعرفة التاريخ - ولم أذكرها - والمعرفة بتاريخ الإنسان .. بنشأة الانسان ومعتقداته.. وأديانه وفلسفاته وتطوراته . كل أولئك مما ينبغى أن يكون السياسى على قدر وافٍ من إدراكه .

الحكومة العالمية حلم
وسوف يتحقق بالقطع

- لننتقل إلى نقطة أخرى .. إن عالمنا أصبح اليوم صغيرًا بفضل الإنجازات العلمية المذهلة فى وسائل المواصلات والأعلام .. والتقدم التكنولوجى الضخم .. فهل ماحدث فى عالمنا يمكن أن يجعل أفكار بعض الفلاسفة المعاصرين عن ضرورة قيام حكومة عالمية لحل مشكلات العالم ممكنة التنفيذ ؟ . أم أن فكرة الحكومة العالمية مجرد وهم من أوهام الفلاسفة المعاصرين كما توهم فلاسفة الإغريق قديمًا فى المدن الفاضلة ؟

يجيب محمد زكى عبد القادر :

- الحكومة العالمية حلم قديم من أحلام الفلاسفة والمفكرين . وكثير من الأدباء الذين نسميهم بالمستقبليين كتبوا عن هذا فى تصوراتهم وخيالاتهم يحسب أن ذلك سيتحقق يومًا ما .. هذا على نطاق الفلسفة والأدب ، وهى بطبيعتها إيماءات إلى المستقبل .. وتنبؤات . أما على نطاق الواقع والعمل ، فقد بذلت أولى المحاولات الجديدة من هذا النوع على الطريق إلى الحكومة العالمية فى سنة ١٩١٨ .. حينما أنشئت عصبة الأمم .. وكان وراءها دون شك فكرة ترمى إلى تجربة نوع من الحكومة العالمية .. ولكن التجربة فشلت . وسرعان ما اضمحلت عصبة الأمم وتلاشت بقيام الحرب العالمية الثانية . ولم يتخل الإنسان عن فكرة الحكومة العالمية أو مايشبهها ، فأنشئت الأمم المتحدة ، ولاحظ واضعوا ميثاقها أنهم يعالجون فيه ماأثبتت التجربة أنه كان ينقص عصبة الأمم .

فقد أخذ على هذه المنظمة الأخيرة ، أنها منظمة أوروبية وليست عالمية .. عولج هذا فى ميثاق الأمم المتحدة بأن أخذت المنظمة الجديدة صورة المنظمة العالمية بقدر الإمكان . ونقل مقرها من جنيف حيث كانت عصبة الأمم المتحدة القديمة إلى نيويورك .

ولكن هذا النقل جعل الكثيرين يقولون : إنها أصبحت منظمة أمريكية . وأنه كان الأجدر أن يكون مقرها فى مكان آخر .

وقد أثبتت التجربة خلال السنوات الماضية ، أن اتخاذ نيويورك

مقرًّا للمنظمة العالمية جعلها بصورة أو بأخرى ليست ممثلة تمثيلا تامًّا وعادلا لكل دول العالم .

ولاتزال تجربة الأمم المتحدة فى الميزان ، ولكنها لاتزال بعيدة بعدًا كبيرًا عن تحقيق حلم الحكومة العالمية !

ويصمت قليلا وهو يشعل سيجارة أخرى ..

– تسألنى عما إذا كان هذا العلم قابلا للتحقيق أم غير قابل له ؟ فأقول لك :

– على سبيل القطع سيتحقق يومًا من الأيام .

* * *

– المتأمل فى تاريخ العالم يجد أنه بدأ بالقبيلة .. ثم بالمدينة .. ثم بالولايات المتحدة ثم بدول صغيرة .. ثم بدول كبيرة .. ثم بمجموعات من الدول فالاتجاه واضح إلى التجمع وليس إلى التبعثر .

– ازدياد وسائل الاتصال بين الشعوب سواء أكان هذا الاتصال عن طريق الصحف أم عن طريق نقل الأفكار والكتب والنظريات الاقتصادية والاجتماعية . ولاينبغى أن ننسى دور الإذاعة والتليفزيون والأقمار الصناعية فى هدم الأسوار والتقريب بين الثقافات ، بحيث أوشك العالم أن يكون على رغم اتساعه وتعدد دوله ، بمثابة دولة كبيرة من حيث التأثر بالأخبار والحوادث والكوارث والاكتشافات العلمية والنظريات الاقتصادية والسياسية

التى تنقل عبر العالم كله لحظة وقوعها .

– الواضح أن نزعات التعصب سواء كان دينيًّا أو مذهبيًّا أو اجتماعيًّا أو وطنيًّا أو متعلقًا بالجنس أو اللون .. أو سائر مايفوق بين الناس آخذة فى التناقص شيئًا فشيئًا .. ومصيرها المحتوم فيما أرى إلى الزوال .

– تقارب النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى العالم ، أمر متوقع فى مستقبل لست أقطع أهو قريب أم بعيد .. ولكن أقطع أنه حادث حتمًا .

– من المتوقع أن تنتهى فكرة الحرب من العالم ، ولا أقول هذا من قبيل الأمانى . ولكنى أقوله مستندًا على استقراء التاريخ فى العالم .. ولو أتيح لأى باحث أن يضع رسمًا بيانيًّا للحروب فى العالم منذ وجد الإنسان على هذه الأرض حتى الآن .. لوجد أن هذا الرسم يميل إلى ناحية تناقص الحروب . وكما نشأت التنظيمات الاجتماعية والسياسية فى أول أمرها من قبائل ومن دويلات صغيرة ، إلى أن أصبحت دولار كبرى ، كذلك بدأت الحروب بالتعدد وعلى نطاق صغير إلى أن تركزت فى حروب عالمية كبيرة .

واليوم إذا غضضنا النظر عن الحروب الصغيرة المحلية ، فلا يوجد خطر من حرب كبيرة إلا ماهو محتمل بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . ونحن نرى الاثنين يحاذران أن تقع بينهما مثل هذه الحرب . بل إن من أصحاب الرأى – عسكريين وغير

عسكريين – من يرون أن وقوع الحرب أمر مستحيل .

– فإذا سلمنا بأن هذه النظرة صحيحة وهي فيما أرى صحيحة وواقعة فى مستقبل قريب (مع ملاحظة العوامل التى أشرت إليها) فالمترتب عليها حتمًا إمكان قيام الحكومة العالمية إذ تكون الظروف مهيأة لقيامها ، وخاصة أن انتشار التعليم سيقضى على التعصب الأعمى ، وكلما قل التعصب زاد الالتجاء إلى التعقل .

وأسأل الكاتب الفنان محمد زكى عبد القادر :

– من الملاحظ اليوم أن السياسة تسخر العلم لأهدافها . وهناك من يقول : إن الساسة قد يتخذون من النقد العلمى وسيلة لنهاية العالم .. أليس الأفضل فى هذه الحالة أن يكون رجال العلم هم فى نفس الوقت الذين يمسكون بدفة الأمور ؟

– تقصد أن يكون الحكام من العلماء ؟

– يجب أن نفرق بين فن الحكم والعلم . فن الحكم يحتاج إلى علم ، ولكن العالم ليس بالضرورة ممن يجيدون فن الحكم . وقد يستطيع الحاكم أن يستخدم العالِم ، ولكن العالِم قد لايعرف كيف يستخدم الحاكم . وهناك فرق كبير بين العلم والتطبيق .

قلت له :

– أعتقد أن من خلال قراءاتي لما تكتبه فى يومياتك ، أنك تحاول أن تمنطق الألم .. فهل هذه فلسفة الغرض منها تخفيف وقع المآسى التى يتعرض لها الإنسان فى الحياة أم ماذا ؟

قال :

– مشكلة الإنسان فى الحياة أنه لا يعرف لماذا يعيش . وما الهدف من حياته .. ولكنه وجد فى الحياة، وعليه أن يتحملها راضيًا أو غير راضٍ . وقد أعجبنى الرأى القائل : بأن الإنسان أشبه بمن وجد نفسه فى سفينة وسط المحيط ، فلابد أن تسير به إلى حيث تشاء . ومأساة الإنسان الحقيقية ، أنه وجد فى الحياة من غير إرادته . ، ويعيش فيها طبقًا لظروف ونواميس وقوانين لاشأن له بها . يعيش ويموت ، ولايدرى لماذا عاش ولا لماذا مات .

ولكن قدر عليه أن يعيش حياته بما فيها من متناقضات . والذى أحب أن أؤكده : أن الإنسان لابد له أن يوجد التوازن فى حياته . لابد أن يفلسف واقع حياته . فالتوازن لابد منه حتى نستطيع العيش بلا عقد تعوق مسيرتنا فى الحياة .

فالألم ضرورة . واللذة ضرورة .. السعادة ضرورة .. والشقاء أيضًا ضرورة .. فالحياة مجموعة من المتناقضات وعلى الإنسان أن يفلسف حياته من خلال متناقضاتها .

وأسأله :

– مادور المرأة فى حياتك ؟

– ويجيب :

– ليس للمرأة دور فى حياتى .

وأسأله :

– ماالذى يمكن أن يقدمه الأدب فى خدمة السلام العالمى..؟

– الأدب بطبيعته ، ومنذ وجد هو فى خدمة السلام ، لأن الأديب إنسانى النزعة ، وهو على الأكثر غير متعصب لشيء إلا مايحس أنه فى خدمة الإنسان من حيث هو إنسان .

ولاشك أن الأدب أدى فى مختلف مراحله عبر تاريخ العالم ، خدمات كثيرة لحرية الإنسان وكرامته ، ودفعًا للمظالم والطغيان والاستبداد الذى عاناه فى تاريخه الطويل .. وأنت ترى الآن : كيف يقف الأدباء فى جميع أنحاء العالم على اختلاف جنسياتهم وثقافاتهم ضد الحروب العدوانية ، وضد مطامع الاستغلال أو القهر ويقفون فى صف الإنسان أينما كان . وإلى أى جنسية أو دين انتمى ، فمن حقه أن يعيش بإرادته وحريته وكرامته .

وهذا هو دور الأدب الآن ، والذى لايمكن أن يكون لأى أدب صادق دور غيره .

وينتهى الحديث مع الكاتب الفنان محمد زكى عبد القادر ومازالت الأسئلة كثيرة فى ذهنى . ولكن الوقت يمر سريعًا .. قرابة ثلاث ساعات فى هذا الحوار حتى شعرت (بتنميل) يدى من الكتابة . فكانت نهاية المطاف فى هذه المرحلة ، فى عالم الفن والفكر والتأمل والسياسة والمرأة .

محمد عبد الحليم عبد الله

تفتحت عيناى وقريتى تتحدث عن شاب فقير شق طريقه إلى ميدان الشهرة .. فصوره تنشرها الصحف والمجلات .. وقصصه تأخذ جوائز الدولة ..

كان محمد عبد الحليم عبد الله ناحل الجسم ، قصير الطول .. متوقد الذكاء .. وإن كانت تبدو عليه مسحة الحزن .. ولم أدر سر هذه المسحة الحزينة فى سنى تلك الصغيرة .. ولكن بنظرتى كنت معتزًّا بأن تنجب قريتى أديبًا مشهورًا تنشر الصحف والمجلات صوره وقصصه .. وكنت أكثر سعادة عندما يكتب فى نهاية هذه القصص أنه انتهى من كتابتها فى قرية « كفر بولين » بتاريخ كذا .

وفى سن مبكرة من عمرى أخذت أقرأ روايته الأولى « لقيطة »

التى كان يصور فيها فتاة لقيطة عاشت فى الملجأ .. وكبرت .. وكان جمالها وشخصيتها سبيلا إلى أن يحبها شاب ثرى .. ولكن المجتمع يقف بقسوة ضد هذا الحب .. ويريحها من هذا العذاب مرضها الذى عجز الطب عن شفائه .. ثم انتقالها إلى العالم الآخر.

وتناثر على المقبرة تراب كثير .. وفرغت الأيام من ذكرى ليلى .. وفرغت من شئونها الأقدار.

وبهذه النهاية الرومانسية الشاعرة .. أنهى كاتبنا هذه القصة التى يحلل فيها شخصية ينبذها المجتمع بلا مبرر .. بلا ذنب جنته .. فليست هى التى أوجدت نفسها فى هذا العالم الظالم بطريقة غير شرعية .. ومع ذلك فهى تجنى ثمرة .. وجودها مرًّا وعلقمًا .. لم يشفع لها فى ذلك .. جمالها .. ولا طيبة قلبها .. ولا حبها .. حتى هذا الحب الرائع الذى جعل لحياتها طعمًا ومعنى لم يرحمها من عذاب المجتمع .. لم يرحها إلا الموت!

كان الأسلوب رائعًا وجذابًا .. وحفظت جملا كثيرة من هذه القصة .. ثم تتابعت قراءاتى لأعماله القصصية فقرأت «غصن الزيتون» و «بعد الغروب».

ووجدت زملائى فى المدرسة يفعلون نفس الشىء .. حتى إذا ما وصلت إلى السن الذى أدرك فيه ما أقرأ بموضوعية، كنت قد قرأت كل ما أنتج هذا الأديب.

ربما لاعتزازى بأنه ابن قريتى .. وربما لتوثق صلتى به بعد ذلك أكثر وأكثر.

ولازلت أذكر أننى عندما جئت إلى القاهرة لألتحق بالجامعة، كان حلمى الأكبر أن أعمل بالصحافة .. والصحافة هى التى ستقودنى إلى عالم الأدب .. وإلى معرفة كل أدباء ومفكرى مصر عن قرب ..

ولكن كيف الوصول إلى ساحة صاحبة الجلالة ؟ .. كنت أريد أن أشتغل بالصحافة فى نفس الوقت الذى أدرس فيه بالجامعة .. وذهبت إليه ليقدمنى إلى هذا العالم الذى خلبنى لبى فى تلك السن .. ولم يتوان فى تقديم مساعدته فى هذا المجال .. اتصل بالأستاذ إحسان عبد القدوس فى روز اليوسف . وطلب منى أن أتوجه إليه لأتمرن فى مجلة «روز اليوسف» .. كانت فرحتى يومها لا تعد لها فرحة أخرى .. هاأنذا سوف أكون كاتبًا .. وسوف أقابل إحسان عبد القدوس الذى قرأت له العديد من قصصه .. والعديد من مقالاته السياسية الجريئة .. وقابلت بالفعل الأستاذ إحسان .. وسألنى ماذا أريد أن أقدم؟

وخيل إلى أن أعطيه صورة مشرفة عن نفسى .. أن أظهر له قراءاتى الكثيرة المتعددة .. قلت له : أقدم دراسات عن الشخصيات العالمية التى غيرت مجرى التاريخ العالمى ؟ .. بابتسامة سألنى .. مثل من ؟ .

- برناردو شو .. فرويد .. أدلر .. ماركس .. فرويد .. بابتسامة رقيقة أعطانى الدرس الأول فى حياتى الصحفية، عندما أخبرنى أنه أجدر بى أن أذهب إلى سور الأزبكية .. وأن أختار بعض الكتب لكتاب ليسوا بالضرورة كتابًا مشهورين .. وأعرض هذه الكتب، ثم طلب من الأستاذ صلاح عبد الصبور أن يقوم بتدريبى .. ولم استجب يومها لهذه النصيحة .. وعجزت عن مقابلته بعد ذلك ..

وخيل إلى أنهم لا يقدرون ما أكتب .. وتركت روز اليوسف .. وتفرغت لدراستى. وزرت محمد عبد الحليم عبد الله فى مكتبه .. فإذا به يتحدث عن الأستاذ أنيس منصور .. سألته: هل تعرف الأستاذ أنيس؟ قال: إنه أعز أصدقائى.

- أريد أن أتدرب معه فى مجلة الجيل!

وببساطة القروى .. أخذنى فى اليوم التالى إلى الأستاذ أنيس منصور وقدمنى له.

كنت قد قرأت له كتابه عن «الوجودية» ومقالاته وقصصه التى ترجمها لكاتب إيطاليا الكبير البرتومورافيا فى أخبار اليوم .. وسعدت عندما وافق على أن أتمرن معه .. وفى اليوم التالى سألنى الأستاذ أنيس عما أريد أن أقدمه .. وأعدت عليه نفس «الأسطوانة» التى عرضتها على الأستاذ إحسان عبد القدوس .. وابتسم وهو يقترح على موضوعات صحفية .. قمت بتنفيذها بسعادة غامرة وإن كانت هذه الموضوعات بعيدة كل البعد عن عالم

الأدب .. وعالم الفكر الذى أحب أن أقترب منه بشغف شديد .. وزادت صداقتى مع عبد الحليم عبد الله إلى آخر يوم من أيام حياته .. وعرفت لماذا كان حبه الشديد للريف، وعرفت سر هذه المسحة من الحزن الذى تعتريه.

أما حبه للريف؛ فلأنه كان يؤمن أن القرية قادرة على إعطاء (منح) تعجز عنه الأماكن الأخرى، فهى قادرة على إعطاء الرضا وصفاء النفس. وعدم الخوف وعدم القلق، والدليل على ذلك بسيط. فى القاهرة مئات من المآذن .. لكن هل تتعلق عيون الناس بمئذنة وحيدة بين عدة قرى ؟؟ هل يرون القمر فى المدينة ؟؟ هل يحتاجون إليه ؟ هل يعرفون فى المدينة معنى التحية لمن لا تعرفه ؟ المار فى القرية يقرىء السلام كل الناس بينما فى المدينة غير ذلك .. فللقرية عطاء سخى وبسيط فى بساطة (الفطرة) وللمدينة عطاء صغير ومركب مثل قطعة (الجاتوه) وكذلك الناس.

وكان يؤمن أن الريف هو مصر .. والقرية مع بساطتها لا تعطى إلا من طالت عشرته معها. وأن يدا هذا الريف بسيطا جدا .. سهلا جدا .. لكن القرية فى إعطائها للفنان تفضل أبناءها أولا. فلكى تعرف سرها وتكتب عنها لابد أن تكون من صميم أبنائها الذين لا يخافون على أحذيتهم من التراب!

ومن هذا الحب نبع إنتاجه الفنى. وكان أول عمل تناول القرية

وملامحها هو قصة (بعد الغروب) وهى قد تناولت آلام الفلاحين بصورتين :

صورة ابن الفلاح الذى يريد أن يهزم الطبقة المتحكمة فيه بملكية الأرض . يهزمها بسلاح العلم والإخلاص فى العمل . وهذه القصة لم تتناول مشاكل الفلاح بالصورة التى تصرخ فى وجه القارئ ، بل بصورة رقيقة تحمل كل المشاعر الإنسانية . على أن هذه الصورة قد اختلفت فى قصة (الجنة العذراء) فهذا الفلاح فيها مقهور مظلوم وفى قصة (للزمن بقية) بدت صورة الفلاح القديم وصورة المتحكمين بالأرض وفى الأرض .. بدت بشكل أكثر وضوحًا وتأثيرًا .

وكان يرى أن الكتابة عن بيئة ، ليست إلا ما يفيض من النفس بعد أن تمتلئ ، ومن الممكن جدًّا أن يعيش الإنسان فى الريف ولا يكتب عنه ، كما عاش هو فى المدينة وما كتب عنها . فالكتابة عن وطن ليست إلا تجربة بكرًا من ناحية ، وعميقة وحيدة من ناحية أخرى .

وقد عرفت سر هذه المسحة من الحزن التى كانت ترتسم على وجهه ، عندما سألته يومًا سؤالا مباشرًا ..

- ما هى المشاكل التى واجهتك عندما أصبح القلم بالنسبة لك حياة ، والمشاكل التى تعترضك اليوم بعد أن تحددت سمات أدبك ؟

قال : مشاكل أول الحياة الأدبية مثل مشاكل الشباب الحارة

والحادة ، مشوبة بالقلق والخوف . فأنا مثلا كنت أهتم بأثر ما اتصل أكثر من الآن . أما الآن فقد وثقت من شيء فقلّت المشاكل . إن محاولة التقدم بالنسبة للنفس ، أحسن ما يعمله أى إنسان سواء كان أديبًا أم صانعًا أو فنانًا . إذن فمشكلتي الآن هى محاولة أن أكتب الأحسن دائمًا .

ولكن عبد الحليم عبد الله كان عاتبًا على النقاد الذين لا يكتبون عن فنه لا لشيء إلا لأنه لم ينتم إلى شلة معينة ، ولم يتحمس لمذهب عقائدى معين .. وكان ذلك يثير فى نفسه الكراهية لهم .. وكان يقول : إذا كنت أريد أن أعمل ، فعلى أن أتعامل مع القراء وهم نقاد عادلون ، أما إذا شغلت نفسى بما يدور فى حياتنا الأدبية ، وعدم التفات النقاد لعمل ما والتفاتهم لآخر . إذا حدث ذلك ، فالأفضل أن أكف عن العمل لأننى أرى النقد فى معظم حالاته علاقات شخصية لا رسالة أدبية ، مع أن عندنا أقلا ما جادة ، غير أن الجادين لا يملكون فرصة أو لا يملكون وقتًا . فالمفروض أن عمل الناقد مكمل لعمل الفنان وموجه له . وذلك يعطى التطهر النفسى ، والنظر إلى الأعمال الفنية بحرص ونزاهة ، والذى عندنا أزمة ثقة بين الكاتب والناقد .. وكان يرى أيضًا أن هناك من النقاد من يحكمون على الأعمال الأدبية (بالإشاعة) دون قراءة هذه الأعمال .

مهما يكن من شيء فقد كان عبد الحليم عبد الله كاتبًا فنانًا .. له

لونه .. ومذاقه الخاص .. وكان له قاعدة عريضة من قراء القصة .. رغم ظلم النقاد له.

إنني عندما أقرأ قصصة أحس علاج المؤلف نفسه. وهو يواجه الحياة سابحًا عكس التيار ليصل إلى شاطئ آمن .. ليس فيه مرارة الطفولة، وقلق الصبا، وحيرة الشباب .. فأبطال قصصه يحاولون تغيير واقع قاتم عاشوه تحت وطأة الفقر، إلى واقع جديد .. وسيفهم أن هذا الواقع الجديد هو العلم.

محمود أبو الوفا

محمود أبو الوفا .. شاعر كبير .. نال جائزة الدولة فى الأدب .. قدم عنه المستشرقون دراسات مستفيضة ، ومع ذلك فهو مجهول فى بلده فى مصر .

وعندما حاولت الوصول إليه ، كان على أن أسير فى شارع محمد على قرب القلعة ، ثم أصعد سلمًا عاليًا لأدخل إلى حارة .. وفى أعمال هذه الحارة قابلت الشاعر الذى قال فيه شوقى شعرًا .

وما كدت أضع قدمى على باب حجرته .. حتى وقع بصرى على إنسان تبدو السماحة والصفاء على وجهه .. بجلبابه وفوقه (الروب دى شنبر) وقابلنى بابتسامة عريضة رغم أننى ذهبت إليه بلا ميعاد سابق .

وعندما حاولت أن أجرى معه حوارًا فكريًّا .. كانت تنساب إلى خاطرى الأغنية التى كان يترنم بها عبد الوهاب من تأليفه، والتى رددتها الملايين.

عندما يأتى المساء
ونجوم الليل تنثر
اسألوا فى الليل عن نجمى
متى نجمى يظهر؟

وعندما علم أننى صحفى .. أحسست أن فى نظراته عتابًا .. لم يفصح عنه ولكنى أحسسته .. كأنه يقول لى:

- إن الصحافة تجرى وراء الأسماء ذات البريق .. وتنسى الناس الذين خلقوا أنفسهم بأنفسهم وأصبحوا يشكلون تيارًا فكريًّا خصبًا.

وأحاول أن أجد بداية الخط الذى أبدأ به حديثى .. وعندما أجد البداية .. وأتذكر .. عندما يأتى المساء وأتذكر قصته مع شوقى وعبد الوهاب ويحكى قصة من أجمل القصص الواقعية .. قصة ليس فيها خيال مؤلف موهوب، ولكنها قصة واقعية لعبت دورًا كبيرًا فى حياة الشاعر الكبير .. أصمت والصوت الجليل .. القوى النبرات ينساب إلى أعماقى. وهو يحكى قصته مع أمير الشعراء أحمد شوقى:

- كنت أحب الشعر وأقرضه .. وأصبح لى تلاميذ يأتون إلى فى

المقهى الذى كنت أملك جزءًا منه نسمع الشعر ونتناقش فى أمور الأدب والأدباء .. وذات يوم قالوا : إن هناك حفلة كبيرة ستقام لتنصيب شوقى أميرًا للشعراء . سيحضرها شعراء من كل البلاد العربية . وأعلنوا عن مسابقة للشعر تقال فى هذه المناسبة .

وتحت ضغط أصدقائى ، كتبت قصيدة وأرسلتها إلى اللجنة . وفوجئت بأن القصيدة التى كتبتها هى الأولى . وألح علىَّ أصدقائى أن أذهب لألقى القصيدة بنفسى ما دمت قد فزت بالجائزة الأولى ، وتحت ضغط هؤلاء الأصدقاء ذهبت إلى الحفل الضخم الذى كان يضم عليه القوم فى هذا العصر .. ذهبت بجلبابى وعكازى .. فوجئت بالنظرات التى تزدرى هيئتى .. ولمحنى محمد عبد الوهاب .. قابلنى معانقًا . ولكن فوجئت بأحمد شوقى يهدد بأنه سينسحب من الحفل لو لم أنسحب أنا .. وقررت الانسحاب بعد أن سقط من نظرى هذا الجلال والاحترام الذى أكنه لشوقى .

وتساءلت .. من أنا حتى يقف منى شوقى هذا الموقف ؟ .. ولماذا يقف هذا الموقف من إنسان جاء ليحييه ؟ !

ومرت أيام .. وأخذت أكتب أشعارى فى المجلات .. وعندما أقام تلاميذى حفل تكريم لى فوجئت بشوقى يأتى معتذرًا ويقول قصيدة يحيينى فيها .. وعلمت أن الجفوة التى حدثت كانت نتيجة وشاية من بعض الذين ذهبوا إليه يقولون : إن محمود أبو الوفا لا يعجبه شعرك ! وابتدأت بعد ذلك صداقتى بشوقى .. حتى أنه كتب وصية

بألا يصدر أى ديوان له إلا بعد أن أقره بنفسى!

– وماذا قال عنك شوقى بعد هذه الجفوة؟

.. يصمت الرجل وأحس بالتأثر على قسمات وجهه:

البلبل الغرد الذى هز الربا
وشجا الوصول وحرك الأوراقا
سباق غايات البيان جرى بلا ساق
فكيف إذا استرد الساقا

ومحمود أبو الوفا هو صورة أعتقد أنها لن تتكرر كثيرًا.. فهو على حد تعبيره – ابن الحياة – لم تثقفه مدرسة أو جامعة.. ولكنه صنع نفسه بنفسه.. من قراءاته الطويلة.. من تجاربه وخبراته فى الحياة.. إنه معتد بنفسه إلى أقصى حدود الاعتداد.. إنه مثل العقاد.

وأسأله:

– ألم تهد كتبًا لك يومًا إلى العقاد؟

ويجيب:

– لم يحدث أن أهديت كتابًا لأحد. إن العقاد طلب منى كتبى، ولكن لم أذهب إليه ليكتب عنى.

– وهل كتب عنك العقاد يومًا؟

– كثيرًا..

– هل حدث صدام فكرى بينك وبين العقاد؟

– حدث مرة أن كتب العقاد مقالا عن (إنسان الفصل الخامس) .. وفى مقاله هذا ، حاول أن يعقد مفارقة بينى وبين نيتشه ، وقابلته صدفة فعرض على المقال الذى كان سينشره .. فناقشته فى هذا وأخبرته أنه ليس هناك علاقة بين فلسفة القوة عند نيتشه .. وفلسفتى عن إنسان الفصل الخامس .. واقتنع العقاد .. وسحب المقال وأعاد كتابته بعد أن أخبرنى بأن هذه هى المرة الأولى التى يعدل فيها مقالا كتبه .

* * *

– بهذه المناسبة .. هل تعتقد أن (إنسان الفصل الخامس) فلسفة متكاملة أم مجرد نظرة من خلالها ترى الأمور والحياة ؟..

– أترك الحكم فى هذا يا عزيزى للناس وللتاريخ .. وسواء أكانت فلسفة متكاملة . أم مجرد نظرة إلى الحياة .. فهى تبلور نظرتى للأمور والحياة .

– هل يمكن إعطاء القارئ فكرة عن (إنسان الفصل الخامس) ؟ .

وأخذ الرجل يشرح لى هذه الفلسفة .. أخذ يحدثنى أكثر من ساعتين عن مضمون هذه الفلسفة .

وخلاصتها :

أنه عبر التاريخ الطويل للزمن .. والإنسان يفكر ويبحث ويسأل أى أنواع المعرفة أقدر على توضيح العلاقة بين مكونات النفس بما

فيها من قوى طبيعية ، وبين خالق هذه النفس ومبدع تلك الذات . ثم خرجت الأديان بعد تجارب الإنسان طيلة وجوده على سطح هذه الكرة لتوضح الطريق لهذه المعرفة . ولكشف هذه الطبيعة . ولإضاءة الطريق أمام الجهود العلمية للوصول إلى المعرفة . وأخيرًا لتقنين تلك المعرفة .

ولكن للأسف .. يظهر أن البشرية من الفهم الصادق لهذه الناحية من المعرفة مازالت تتأرجح ذات اليمين وذات اليسار ، إن الكثيرين من الناس لا يزالون يأخذون التعاليم الدينية على أنها أوامر من الخارج ، ليس لها أى رصيد داخلى من تكوين الإنسان ، ومما ساعد على ذلك ، خروج عدة فلسفات لم تعتمد هذا الرأى فحسب ، ولكنها أخذت تدعمه وتقويه ، وهكذا على أضواء هذه الفلسفات والثقافات أخذ العلماء والساسة والفنيون يوجهون الناس . ماذا حدث ؟

ننظر ، فتقع أعيننا على ما يذهلنا من اختراعات واكتشافات ، وثروات طائلة ، ومحاولات ناجحة وصلوا بها إلى الصعود إلى القمر .. هذا من جانب ..

ولكن من الجانب الآخر ، ماذا حدث أيضًا ؟ .

الفقر والجوع والأوبئة والكوارث والكروب والحروب ، واستعباد الأقوياء للضعفاء .. وهكذا .. وهكذا ، حتى لكأن البشرية مما يعانيه الناس لا تزال فى غاباتها والأدغال .

.. هذا التناقض .. وهذا الانفصال اللذان، تعانى منهما الإنسانية .. جعلا فيلسوفنا يؤمن بأن هذا التناقض يرجع إلى أن السادة الموجهين ذهبوا فى فلسفتهم إلى أن التعاليم أوامر صادرة من الخارج وليس لها رصيد داخلى. وهذا معناه فى رأى فيلسوفنا أن الإنسان مجرد جهاز خشبى، أو قالب .. إنه مجرد كائن ليس للحياة منه إلا هذا الظاهر فى هذا القوام، أما ما فيه من باطن فليس له أى قيمة .. كأن الإنسان ليس إلا هذه التغيرات الخارجية والتقلبات الاجتماعية. أو هى ليست إلا تلك الدوافع السطحية والرغبات الجنسية، فهل يمكن أن نقول لهؤلاء: إن الحياة أكبر مما ذهبوا؟ هل ممكن أن نقول لهم؛ إن الحياة هى تلك القوة التى أودعها خالق الحياة فى الخلية الأولى من تكوين هذا الإنسان؟

ومن هنا تبدأ تتضح نظرية محمود أبو الوفا .. فالخلية البشرية فى رأيه، مادتها النور، الذى هو المصدر الأول لكل شىء، هذا النور هو الجوهر الأساسى للطبيعة، وأن هذه الطبيعة لم تخلق إلا من نفس الرحمن وأن هذه النفس النورانية هى التى أمدت الطبيعة بكل ما تحتويه عناصرها من الأسرار، وأنها هى السر فى جميع ما فى العناصر الطبيعية من قوى أو طاقات.

إن النور هو الأصل الأول للحياة، وهو جوهر الطبيعة، وإنه من هذا النور تتولد الطاقات .. الضوء .. والحرارة .. ثم الماء .. هذه هى المادة الأولى فى التكوين، والتى منها يبدأ كل تكوين حى سواء

من النبات أو الحيوان أو الإنسان، بل إن الماء ما هو فى الأصل إلا ماء ذائب.

وهكذا تكون الشفاقية التى هى صفة الماء.. أو الضوء الذائب، هى الصفة الأولى فى كل خلية وكل نفس، وهكذا تتكون الطاقة النابعة عن شفافية الخلية هى القوة الدافعة للحركة الذاتية فى تكون هذا الإنسان، بل وفى غير الإنسان.. هذه الشفافية موجودة فطريًّا فى جميع العناصر المكونة للخلية بما فى ذلك الروح النبيل، الذى يعطى الخلية حق التكامل والسيادة التامة على الخارج، على كل ما فى هذه الحياة من نبات أو حيوان أو جماد.

ولكن بالتربية.. والتجارب والخبرات، تتحقق للإنسان المسئولية القائمة على الاختيار الحر والحركة الذاتية النامية من ذاتيته وتجربته فى الحياة.

هذا هو ملخص، هذه الفلسفة، وأرجو أن أكون قد وفقت فى بلورتها فى تلك السطور.. لقد عبر الشاعر عن هذه الفلسفة شعرًا فى غاية القوة والرقة والشفافية.. فوضح صلة الأرض بالسماء.. ولذا سمى هذه الفلسفة بإنسان الفصل الخامس، لأن ارتباط الأرض بالسماء فى هذا الإنسان المخلوق بهذه الشفافية، يجعل الإنسان ثائرًا دائمًا لأن النور لا يجمد مطلقًا.. فآدم ثار على الجنة. فأكل من شجرة الخلد حتى يخرج منها. وهو يقول:

السما والأرض منذ انفصلا
وهما للوصل موصولا الانين
والرياح الموج من بينهما
هن رسل الشوق أو رسل الحنين

.. والمرأة فى نفس الشاعر وفلسفته تشكل عنصرًا هامًّا وحيويًّا .. وقوة دافعة للحياة .. فيخاطبها قائلا:

بنت حواء إننا منك بتنا
نرتجى ريح ذلك الميدان
حل فيك الخلود لحنًا شهيًّا
عبقرى التلحين والألحان
لحنى لحنى على الأرض حتى
تصبح الأرض جنة الرضوان
لا أرى آدمًا عصى الله، لكن
شاء أن يستقل بالسلطان
يكره الحر أن يعيش على السجن
ولو كان سجنه فى الجنان
ليت شعرى ماذا أراد بنا الخالق
إلا سيادة الأكوان ..

محمود حسن إسماعيل

محمود حسن إسماعيل، شاعر من أكبر شعراء مصر .. وأكثرهم إنتاجًا .. وكان شعره يتسم بالمتانة والعمق وجمال الأسلوب ورقة المعانى. ورغم رومانسية شعره إلا أنه كان يستمد مادته من دنيا الناس .. من آمالهم وآلامهم .. وكان أعذب ما صدحت به قريحة الشاعر «أغانى الكوخ» .. فى هذا الديوان .. نرى محمود حسن إسماعيل الفلاح الذى شاهد عن قرب مأساة الفلاح المصرى، الذى يحاول أن يجد واقعًا أحسن .. ويحاول أن يتخلص من بؤسه وفقره .. ومأساة حياته .. ولكن كيف الطريق وكل الأهوال تقف أمامه .. الإقطاع والجشع .. واستغلال عرقه .. وامتصاص دمه ؟.

أذكر أنه قال لى يومًا وهو يتحدث عن أثر طفولته فى تكوين

شخصيته، وأنا أسأله لو لم يكن محمود حسن إسماعيل الشاعر فماذا يود أن يكون؟ قال لى يومها وسحابة من الحزن تبدو على وجهه: لو لم أكن شاعرًا.. ولو لم تهبنى السماء طبيعة الشاعر وإشعاع موهبته وفطرة موسيقاه، ولو لم تمكن ظروف النشأة من التثقيف العربى العميق الذى يتيح لى الإفصاح والتعبير عما أحس بلفظ عربى هو لغتى ولغة أمتى العربية.. هو هذا الذى تراه.. لكنت أبكم اللسان.. شاعرًا لا أثر له.. يتحرك على تراب الأكواخ من عبيد الأرض.. بإحساس شاعر.. ولسان جاهل فأنا إما شاعر وإما لا شىء.

وواضح أنه الشاعر يعنى الإحساس بالأرض والذين يعيشون للأرض وبالأرض. وأنه إذا لم يعبر عن هؤلاء الذين أسماهم عبيد الأرض، ما كان يعد نفسه فى قائمة الشعراء.. فهو ملتزم بقضية ما.. والقضية هنا هم هؤلاء الذى عاش على أرضهم.. وترعرع عليها فى طفولته.. وعرفها معرفة حقيقية.. وأذكر أنه راح يسرح بخياله بعيدًا.. بعيدًا.. إلى قريته فى الصعيد.. وهو يحدثنى عن هذه الطفولة:

لم تترك طفولتى فى الصعيد بصمات على حياتى كشاعر، بل كانت هى السر الذى اندلعت منه حياتى الشعرية، فهى لم تكن طفولة فقط.. بل كانت امتدادًا منذ مولدى بالقرية إلى أن نزلت المدينة.. وقهرنى فن الشعر على التفجير قبل انتهاء مدة الدراسة

العليا بصدور ديواني الأول (أغاني الكوخ) ذلك أني عشت القرية بروحي وجسدي .. متوغلا في دخانها وترابها وشتاتها ورقها المستسلم الوادع . الذي طبعته مقارع السنين بالطمأنينة الكاذبة . والقناعة المهينة ، ورأيت الإنسان فيها أذل من سائمته كما يقودها يقاد ، وكما يطعمها يُطعم .. ورأيت المجتمع كله يتعاور على أعتاب حفنة من السادة .. ولا أستطيع تفسير شحنة العذاب والرفض التي كنت أحملها كما فسرتها أنغام الكوخ و (هكذا أغني) و (أين المفر) وسائر الدواوين والأشعار التي نشرت بعد ذلك . وكلها تقطع على من يطيل التأمل والإصغاء ، بأن البيئة التي نشأت فيها مع الفلاح أبذر وأسقي وأزرع وأحصد وأحرس الحقول والسنابل . وأعانق الشادوف والفأس والمنجل مع الكتاب .. هذه البيئة وهذا المناخ الشقي المستعبد ، لن تختفي وراءه مهما ترامى بي الفن في أبعد آفاقه الإنسانية في أي اتجاه .

في جلسة أخرى مع الشاعر ، سألته عن الفرق بين ديوانيه الأول والأخير .. ولم يكن الغرض من السؤال ، سوى أن يفصح الشاعر بنفسه عن مدى ما يحسه من فارق بين أول ديوان كتبه يتغنى فيه بآمال الفلاحين ويتحدث عن بؤسهم وآلامهم .. وبين ديوانه الأخير الذي وصلت فيه شاعريته إلى درجة من الشفافية العميقة ، والذي أصبحت له وجهة نظر أعمق في الحياة بحكم الخبرة والتجارب والسنين .. إنه يقول :

فى الجوهر لا فرق، الشاعر فى (أغانى الكوخ) هو الشاعر فى (نهر الحقيقة). قد تتجدد الرؤية فى الأعماق بين كل ديوان وما بعده، بل بين كل قصيدة وما بعدها. فالحركة الشعرية سبح هائل فى بحار مجهولة الآماد والأبعاد.

وما لم تنفذ رؤى الشاعر وانطباعاته مع كل دقيقة من حركة الوجود فهو عازف وجود وموت وانتهاء.. وما خلق الله الشعراء ليجتروا ما يعزفونه للحياة فيتحولوا إلى معازف سمر ولغو وتكرار وتسلية موجهة لأسماع الناس.. الشعراء فى حقيقة أمرهم فلاسفة وغزاة مجهول.. أعطاهم الله - إن كانوا موهوبين - طاقة الاندفاع بلا توقع ولا ترتيب ولا تشكيل ولا امتصاص فى المقروءات، ولا تسلسل من رقات الأنغام التى سمعتها البشرية لطرحها من جديد على الفن.

كان من رأيه أن الشعراء غزاة لأعماق نفوسهم وآفاق عصرهم.. ولا يقفون أبدًا ولا يلتفتون إلى الوراء ليعيدوا طرح تجارب من سبقهم ولا يتخيلونها للمحاكاة والتقليد والتوليد دون أن يأتوا بإبداعات جديدة لن تواتيهم إلهاماتها بغير الحركة النفسية الدائمة رغم صرير الدنيا من حولهم.. تجارب ذاتية جديدة، ورؤية جديدة يعرفها الإحساس وتنقلها طاقة الإلهام إلى ساحة الفن جديدة نقية الصور.. ومن هنا يأتى الشعر.

وكان الشاعر الكبير يرى أن الشعر المعاصر تلى بمعنيين:

* الأول هي مصيبة التوابيت .. فالتعبير الذى كان يستخدم منذ ألف سنة لغرض من أغراض عصره لا ينبغى أن يساق كما هو لأغراض عصرنا.

* الثانية هي مغبة الغش الذى انتشر كالهشيم تحت إطار الشعر الحر فلن يقل أحد: إن الشعر فى أعلى حدود التطور والتحرر والإبداع يكون متخليًا عن خصائص تلازمه ملازمة الشيء لذاته، كالتحرر من الموسيقى لصفة الشعر. وكان يرى: أن اهتمامنا يجب أن يكون بالشعر لا بشكل الشعر؛ لأنه من الممكن أن يعطينى الرحيق فى كأس من الذهب أو فى كأس من الخزف متغير بذاته.

ومن أجمل قصائد الشاعر.. قصيدة نهر الحقيقة التى نسوق منها بعض الأبيات:

وجودى حقيقة .. وذاتى حقيقة
وإنى على الأرض طير يغنى حقيقة
ونور الحقيقة سر الحياة وسر الأمل
ومن لم يسر فى ضياء
سيمشى ويمشى
ولو داس خد الجبل
ووهم المحال وحلم الأزل
سيمشى ويمشى
ويلقى عصاه أخيرًا على ترهات الفشل

بغير الحقيقة كل شىء خطب سراب
على الحب قامت أصول الحياة حقيقة
وبالخير يسقى هواها هواه حقيقة
وجودى حقيقة
وذاتى حقيقة
ونايى يغنى لأضوائها لا يمل
نفور الحقيقة .. سر الحياة وسر الأمل

لقد كان الشاعر محمود حسن إسماعيل خطًّا متميزًا على شعراء جيله من أمثال الهمشرى وصالح جودت وإبراهيم ناجى .. فبينما كان يغلب على هؤلاء الشعراء الشعر العاطفى كان محمود حسن إسماعيل يتحدث عن مشاكل الحياة فى ريف مصر وما يعانيه تحت وطأة الظلم . إنه لم يستطع أن ينسى لياليه فى القرية .. وبؤس الفلاح شاخص بين عينيه وطفولته ماثلة أمام مخيلته .. إن القصر يمتص جهد الفلاح وعرقه ويتركه على الكفاف .

وقضى القصر على أكتافه
وهو جاثٍ بين ذل واقتناع
وسطا البؤس عليه فغدا
زورقًا فى اليم محطوم الشراع

والشاعر كان لا ينتمى إلى مذهب أزلى معين أو مدرسة فنية معينة ؛ لأنه لا يريد أن يخضع شعره لقالب معين أو مدرسة فنية

معينة. وقد عبر عن وجهة نظره هذه فى ديوانه (هكذا أغنى) بقوله:

مذهبى.. لن تذهب اليوم سدى سوى أصداء فنى
إن تسـل فى الشعـر عنى هكـذا كنت أغنى
لا أبـالى أشـجى سـمعـك أم لم يـشـج لحنى
هـو من روحـى لـروحـى صـلوات وتـغـنى
هـو إحسـاسى الـذى ينسـاب كـالجـدول منى
إن تشـأ فـاسمـع صـداه أو تشـأ تـرحـل عنى

باختصار شديد كان محمود حسن إسماعيل قمة شامخة من قمم الشعر العربى الذى لا يجود الزمن بمثله بسهولة..

لست رجل دين
أنا فنان وشاعر أحب الله

الدكتور مصطفى محمود علامة بارزة فى الفكر المصرى المعاصر.. كتب الرواية.. والقصة القصيرة.. كما كتب المسرحية والقصة العلمية، بجانب أنه طبيب درس الطب.. وتخصص فيه، ثم كانت له محاولات جادة فى عالم الفكر.. فغاص فى بحاره.. وركب زورقه وسط محيط صاخب من الأفكار والآراء والاتجاهات.. وكان هدفه البحث عن الطريق.. الطريق إلى الله.. كان هدفه أن يجد (البوصلة) التى يستطيع من خلالها أن يعرف الطريق السليم.. وهى سياحة هائلة.. والوصول إلى الشاطئ يحتاج إلى مهارات خاصة.. يحتاج أيضًا إلى توفيق من الله.. واهتدى الرجل إلى طريقه.. وعرف أن الحقيقة الوحيدة المطلقة هى (الله).. و .. شق

طريقه إلى محاولته الوصول إلى المعرفة.. وما أكثر الذين غرقوا أو أغرقتهم فلسفات جوفاء.. وأفكار لا تصل بالإنسان إلى شاطئ الأمن والأمان.

مصطفى محمود عندما يعرف: من هو العارف بالله؟ يقول: إن معرفة الله خشيته.. وخشيته طاعته، ومن لم يطع ربه فما عرفه ولو كتب المجلدات.. ودبج المقالات وألف النظريات فى المعرفة الإلهية.

* ما هو موقف الدين من العلم؟.. وهل هناك تناقض بينهما؟.. وهل الدعوة إلى الدين دعوة إلى «السلفية»؟.. ثم ما هى السلفية؟ هل هى الرجوع إلى الوراء.. أم العودة إلى الينابيع الأولى للدين.. إلى الينابيع الصافية.. وإلى الأصالة؟

تلك أسئلة تتردد دائمًا فى أذهان الكثيرين من الناس.. وهى أكثر الحاحًا على عقول الشباب فى عصر استطاع فيه العلم أن يضع قدم الإنسان على وجه القمر.

فى تناوله لقضية الدين والعلم، يقول الدكتور مصطفى محمود.. إن الدين ليس مجرد شعائر فقط.. ليس مجرد ركعات.. ولا رشات على الوجه كل يومٍ باسم الوضوء.. أيضًا لا يمكن أن يتقلص الإسلام ليصبح نقاشًا حول لحية: كم تطول وكم تشذب؟.. أو نقاشًا حول الأزياء.. وهل تكون حجابًا أو نقابًا؟.. حينما تصبح المعارك الدينية مجرد شكليات، فهذه كارثه ونكسة.. وأسوأ

منها الاتجار بالدين، وأن يصبح الدين ذريعة لتكفير الناس،.. وشهر البنادق والسلاح فى وجوههم وتخريب المجتمع، ومعاداة العلم.. الدين داخل فى كل شىء.. الدين يأمر الإنسان بالاستزادة من العلم والقراءة والاطلاع، والتفكير فى خلق السموات والأرض.. الدين لا يتناقض مع العلم.. بل إنه يزاوج العلم ويرافقه ويؤيده.. ويأمر به.. بل إنه هو عين العلم.. الدين هو علم الله.. ولا تناقض بين العلم بالله والعلم بمخلوقات الله.. بل إنك تزداد بالله علماً كلما ازددت بمخلوقاته دراية.. «قل انظروا ماذا فى السموات والأرض».. لا تناقض بين الدين والعلم.

* أما قضية الدعوة إلى الدين.. وهل هى دعوة إلى «السلفية».. والتى أثيرت على شاشة التليفزيون فى ندوة الدكتور يوسف إدريس.. فالدكتور مصطفى محمود قد حسمها بقوله: إن الدعوة إلى الدين هى دعوة إلى معرفة الله.. ومن يعرف الله يعرف طريقه الصحيح.

لكن قضية «العلم والدين».. وقضية «الدعوة إلى الدين».. لم يقف عندهما حوار «آخر ساعة» مع الدكتور مصطفى محمود.. كان هناك العديد من القضايا حول تجربة مصطفى محمود فى مشوار الهداية.. والذى حرص على أن يؤكد فى بدايته: يخطئ من يقرأنى على أننى رجل دين.. أنا فنان وشاعر أحب الله.

ولم يكن حرصى على لقاء الدكتور مصطفى محمود.. هو مجرد

إلقاء أسئلة يجيب عليها .. فما أسهل إلقاء الأسئلة .. ولكن كان هدفى أن يخرج القارئ من خلال هذا الحوار بصورة عن رحلة عمر .. ومكابدة فكرية .. وتكوين شخصية .. عن إنسان قرأ مئات الكتب .. وفكر وناقش .. ثم اهتدى إلى طريق .. بعد أن درس ونقب فى مختلف مجالات المعرفة .. أى أنها محاولة لتقريب رؤية الكاتب للحياة، ومسيرة عمره .. والذى عبر عنها من خلال ٥٢ كتابًا ألفها فى مختلف مجالات الفكر .. إنها محاولة لتقريب صورة وفكر مصطفى محمود ..

وعندما كنت فى طريقى إلى الالتقاء به فى مسجده .. الذى بناه ليكون مكانًا للعبادة ومتحفًا .. وعيادة طبية، ومكتبة ومرصدًا فلكيًّا .. كان يتداعى إلى ذهنى كلماته عن العارف بالله .. إنه يقول :

«وليس العارفون هم حملة الشهادات .. وإنما هم أهل السلوك والخشوع والتقوى وهؤلاء قلة لا زامر لهم ولا طبال .. وليس لهم فى الدنيا راية ولا موكب .. وسلوكك هو شاهد عملك وليس الدبلوم أو .. البكالوريوس أو الجائزة التقديرية .. أو نيشان الكمال من طبقة فارس الذى يلمع على صدرك، إنما كل هذه مواهب إبليسية تنفع فى الدنيا الشطار ثم لا يكون له وزن ساعة الحق، أما العارفون الذين هم العارفون حقًّا فهم البسطاء، أهل الاستقامة والضمير الذين تراهم دائمًا فى آخر الصف إذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم يفتقدوا .. وإذا ماتوا لم يمش خلفهم أحد.

هؤلاء إذا دفنوا بكت عليهم السموات والأرض وشيعتهم الملائكة .. جعلنا الله منهم .. فإن لم نكن منهم فخدامهم السائرون خلفهم والطاعمون على فتات موائدهم» .

الدين حياة

سألت الدكتور مصطفى محمود .. وأنا أراه ينظر من خلال تلسكوب جاء به من أمريكا أخيرًا .. ومن خلاله يمكن أن يرى حركة الكواكب والأفلاك .. عن علاقة المرصد الذى بناه فوق مسجده والمسجد .

أجاب الدكتور مصطفى :

- الدين ليس مجرد شعائر .. إنما هو داخل كل شيء .. ابتداء من حمام الصباح .. فهو داخل فى الأكل - كلوا واشربوا ولاتسرفوا - .. داخل فى الماء .. فالإسراف ضار حتى فى شرب الماء .. ثم هو أيضًا يدخل فى لبسك لأنه ينصح فى الاعتدال .. فهو ضد الترف .. والطاووسية .. ثم هو أيضًا داخل فى العمل .. دقة المواعيد .. الوفاء بالتعهدات .. إتقان الصنعة .. عدم التغالى فى الربح .. تحمل المسئولية .. الصدق .. الأمانة .

ولايكتفى الموقف الإسلامى بقضية العمل وإنما هو حريص على ملء الفراغ .. ويأمر الإنسان بالاستزادة من العلم والقراءة

والاطلاع .. والتفكير فى خلق السماوات والأرض .. ويحرص على الترويح والرياضة .. ويوصى بالخيل والرماية .. ثم هو يبنى الزواج على أساس المودة والرحمة .. ويجعل علاقات الرحمة موصولة حتى بعد الطلاق .. ويجعل حق الفقير على الغنى حقًا قانونيًا ثابتًا وليس صدقة .. وكذلك حق العلاج للمريض .. وحق المعونة للمحتاج والتعليم للجاهل .. والإرشاد للضال .

الدين إذن ليس مجرد ركعات تركع ولارشات على الوجه كل يوم باسم الوضوء .. وبالتالى لايمكن أن يتقلص الإسلام ليصبح نقاشا حول لحية تطول وكم تشذب .. أو نقاشًا حول الأزياء أن تكون حجابًا أو نقابًا .. فحينما تصبح المعارك الدينية مجرد شكليات .. فهذه كارثة ونكسة .. وأسوأ منها أن يتجر بالدين .. ويصبح ذريعة لتكفير الناس .. وشهر البنادق والسلاح فى وجوههم .. وتخريب المجتمع .. وهدم العمارة .. ومعاداة العلم .. ورفض كل مايأتى من الغرب لمجرد أن الغرب لديهم كباريهات أو أغان خليعة .. حينما تتعطل وظيفة العقل الانتقائية بهذه الدرجة ، وتختلط القيم ، ويتوه فى الحوارى والأزقة .. وينسى الجوهر .. ويصل فى الشكليات والتفاصيل .. ينسى المتدين أن الدين رحمة وعدل وصفاء وتسامح .. ويمارسه على أنه قتل وقسوة وتسلط .. حينما تفوت البديهيات على الناس بهذه الدرجة .. فإن الكارثة لاتصبح كارثة سوء فهم الدين .. ولكننا أمام كارثة أكبر ، هى كارثة مرض النفوس ..

فنزاول الغل والقتل والحقد والحسد .. وننفس عن الضغائن .. وهى تخدع نفسها بأنها ترضى الرب .. وتمارس دينًا وفضيلة .. هؤلاء هم الأخسرون الذين يظنون أنهم يحسنون صنعًا .

الدين هو علم بالله

ويمضى الدكتور مصطفى محمود وهو يتحدث عن ظاهرة عدم تفهم الدين على حقيقته .. وما ينجم عن ذلك من كوارث فيقول :

– وهناك الآن موجه عارمة من التخلف والفهم للوعى والحس الديني تشمل أعدادًا كثيرة من الشباب .. وهيٍ فى حقيقتها تعكس سخطًا ونقمة وتمردًا وثورة ، ولا تعكس دينًا على الإطلاق .. وأصحابها هم أعداء نظام وليسوا أنصار إسلام .. ويخطئ من يظن أن الدين الإسلامى ثورة .. أو انقلاب عسكرى.. وليس هناك كذبة أكبر من هذه الكذبة .. فالدين الإسلامى فى حقيقته إحياء ضمائر .. وإحياء نفوس .. وموعظة بالحسنى .. والله لم يطلب من نبيه إلا مجرد التبليغ :

« إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » .

« لست عليهم بمسيطر »

« فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

قال الله سبحانه وتعالى هذا لنبيه وهو الكامل المعصوم .. وهو

موجه بالتالى لصغار الناس أولا .

وإذا كان هناك مجال للثورة فى الدين ، فهو أن تثور على شيطانك أولا .. وتحكم نفسك الأمارة بالسوء .. وتمنع رغباتك وأطماعك وحسدك وحقدك قبل أن تحاول أن تحكم غيرك .. فمملكة النفس هى المجال الأول والأخير للدين أما المجتمعات فهى لن تصلح أبدًا إلا بصلاح النفوس التى تسوسها .

وبهذا المعنى ، فإن الدين لايتناقض مع العلم .. بل إنه يزاوج العلم ويرافقه ويؤيده .. ويأمر به ..

بل إنه هو عين العلم .

الدين هو علم بالله .. ولاتناقض بين العلم بالله والعلم بمخلوقات الله .. بل إنك تزداد معرفة بالله وعلمًا كلما ازددت بمخلوقاته دراية .

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت »

وهذه الآية تشمل كل علوم الجيولوجيا والجغرافيا والفلك .

وبهذا حاولت أن أجعل المسجد.. مكانًا للصلاة .. ومكتبة ومستشفى .. ومرصداً فلكيًّا وقاعة للسينما .. وفيديو .. ومتحفًا .. ووحدة اجتماعية ومنتدى .

الشك والهداية

قلت له : دكتور مصطفى .. بدأت حياتك شاكًّا .. حتى وصلت إلى اليقين .. فهل كان هذا الشك شكًّا منهجيًّا كالذى نراه فى فلسفة رينيه ديكارت مثلا .. الشك الذى وصل من خلاله إلى اليقين ؟

قال : شكى لم يكن أكثر من إعادة نظر بغية الوصول إلى الحقيقة .. فهو ليس مجرد إثارة جدل .. وتقارع بالحجج من أجل مجرد الملاحاة والتباهى والتفاصح .. وإنما هو محاولة لاستكشاف فى بكارتها .. بعيدًا عن المحاكاة والتقليد والنقل والفهم الإملائى .. محاولة لمس الأشياء فى فطرتها وبساطتها .. ولهذا لم يكن شكى مطلقًا مبدأ ولارفضًا .. وإنما كان لونًا من الحب .. وكان رحلة بدأت وانتهت بفضل الله .. وبفضل هدايته وتنويره ..

بصمات الطفولة

قلت : ما الذى تركته طفولتك من بصمات على مستقبل أيامك ؟

قال : الفضول .. الحلم .. حب التأمل الجمالى للأشياء .. الفن .. الشعر .. الموسيقى .. كل هذه الأشياء كانت طفولتى ..

وأنا أعتقد مع أفلاطون : أن الموسيقى والرياضة البدنية شيئان أساسيان فى تربية الطفل وتنمية ذوقه .. لأن هناك علاقة أكيدة بين حب الجمال .. وحب الخير وحب العدل .. وحب الحق .. وأن هناك علاقة بين البدن السليم والعقل السليم والنفس السوية ..

قلت :

- كيف عشت شبابك ؟

قال : لو عشت حياتى كلها ثانية لعشتها بنفس الطريقة .. ولمررت على نفس المراحل .. ولكتبت نفس الكلمات .. والحقيقة أن حياتى كانت أنا .. وكذلك ٥٢ كتابًا هى دقات قلبى .. ولهاث أنفاسى .. وعيوبى وسيئاتى وحسناتى .. ولو ولدت من جديد .. وعشت من جديد ، فلن أستطيع أن أكون شيئًا آخر غير نفسى .

ما الخيط الذى يربط ماكتبته من إنتاج فكرى ؟

- نعم هناك خيط يربط كل إنتاجى .. والقارئ الذى يتبعنى من أول كتاب إلى آخر كتاب .. يشعر أنه فى سكة سفر .. وأنه فى حالة هجرة وارتحال .. يبحث معى ويفكر معى .. ويتصعد فى تساؤلاته معى .. بدءًا من مشكلة اللغة فى كتاب (أكل عيش) سنة ١٩٥٤ .. وإلى (رأيت الله) .. و (السر الأعظم) .. و (أنا شهيد) .. و (الإثم والبراءة) .. سنة ١٩٨٠ .. فربما كانت حياتى أشبه برحلة الحاج .. الذى يبدأ الرحلة بالمرحلة الأولى بإعداد الزاد والخبز والتموين وحقيبة الأدوية .. ثم ينتهى إلى الكعبة حيث يخر

راكعًا ساجدًا .. متجردًا .. عاريًا من كل شيء .. ناسيًا كل شيء .. هذه الرحلة التي ابتدأت بوقفه تحت الفانوس بين (شلة الأنس) .. (في زقاق الصناديقية) .. ثم هومت مع العلم في المشرحة والمعمل والمختبر والمرصد الفلكي .. ثم جلت مع علماء النفس .. ثم شطحت مع الفلاسفة .. ثم غرقت في بحار الصوفية .. وانتهت بين يدى الله .. هذه هي رحلتي التي يعيشها من يقرأني من أول حرف إلى آخر حرف .. ويخطئ من يقرأني على أني رجل دين .. فما أنا برجل دين .. وإنما أنا فنان .. وشاعر .. أحب الله .. كتب فيه قصيدة .. وبنى له بيتًا .. ولكني في النهاية شاعر فيّ عيوب الشعراء .. وفنان فيّ عيوب الفنانين .. وقد أخطئ أحيانًا .. وقد أضل أحيانًا .. أقرأوني كنقاد .. وارجعولى فيما أكتب .. فما أنا إلا عبد خطاء مثل كل الناس .. لا أدعى لنفسي إلا شرف المحاولة ..

بعض ما أحلم به

قلت : هناك عصور ذهبية مرت بالإنسانية .. كما أن هناك عصورًا للتدهور .. فلو خيرت أن تعيش في عصر من العصور الماضية .. فأى هذه العصور تحب أن تعيش ؟

قال : لن يكفيني عصر واحد .. لن أكذب عليك .. وإنما أنا رجل شديد الفضول .. طماع حيثما وجدت وسيلة إلى معرفة .

أنا أحب أن أتعرف إلى أبينا نوح .. وأعرف كيف عاش ألف سنة إلا خمسين عامًا .. وكيف يعيش الناس أيامها ألوف السنين .. وما كانوا يتعلمون فى هذه المساحة الهائلة من العمر .. وكنت أحب أن أركب سفينة وأرى الأسرة التى كانت ستنجب العالم .

أريد أن أجلس مع النبى إدريس لأتلقى على يديه علم الابراج والنجوم .. أريد أن أرى سليمان .. وأجلس مع العبد الذى عنده علم من الكتاب وأرى كيف نقل عرش بلقيس .

أريد أن أرى موسى وهو يشق البحر بعصاه .. وأرى عيسى يحيى الموتى .. وأرافق ذا القرنين إلى مطالع الشمس ومغاربها .. وأرى حقيقة يأجوج ومأجوج .. والسد الذى بناه ذو القرنين من النحاس المذاب .. وفى النهاية أجلس بين يدى النبى الخاتم محمد عليه الصلاة والسلام .. وأحارب معه فى بدر وأن أرى معجزة خالد ابن الوليد فى اليرموك .. هذا بعض ماأحلم به .

عملقة العصر

* لقد زرت أمريكا أخيرًا .. فما الذى خرجت به من انطباعات بعد هذه الرحلة ؟

– العملقة فى التكنولوجيا والعلم والفضاء .. وحمى النشاط الذى تراها فى الشارع الأمريكى والنظام والقدرة الخرافية على

الإنجاز السريع .. والمهارة فى استخراج كنوز الأرض والبر والبحر .. أحلم أن يكون لنا بعض هذه المهارة وبعض هذا النشاط .. ونحن أولى .. فتقاليدنا وديننا يأمرنا بالعلم والنظام وحسن التعامل وعمارة الدنيا .. وعندنا حوافز ودوافع أكثر منهم .

القفز برجل عرجاء

* وهل أدت الحضارة الغربية إلى سعادة الإنسان ؟

– هذه الحضارة لم تؤد إلى سعادة الإنسان .. ولكنها أدت إلى عملقة فى القوة .. وهى لم تؤد إلى السعادة لسبب أنه لم يواكبها نمو مماثل فى المحبة والرحمة والإيمان .. فكان التقدم أشبه بالقفز برجل عرجاء .. والتقدم الحقيقى يحتاج إلى ساقين .. الساق المادية .. والساق الروحية .

المصير .. إلى أين ؟

* قلت له : هناك رأى لبعض المؤرخين من أمثال أشبنجلر مثلا ، بأن حضارة الغرب محكوم عليها بالانهيار .. فهل ترى هذا الرأى ؟

قال : نعم هذا مصير محتمل وقريب .. إذا لم تفق هذه الحضارة

المادية على ضرورة استكمال وعيها الروحى .. فالعملقة فى القوة .. دون أخلاق ، ربما تؤدى إلى شمشون يدمر نفسه وغيره بالقنابل الذرية ..

وربما كان هناك أمل فى أن يصحو هذا الجانب الشرقى من العالم البحر .. ويوصل كلمة حب وخير ونداء رحمة وإيمان إلى هذا العالم المظلم من العماليق والجبابرة وصناع الذرة والليزر والقنابل الهيدروجينية .

هل نستطيع؟ هل فينا من يقدر على حمل أمانة مثل هذه الدعوة؟ .. وهل تجد مثل هذه الدعوة آذانًا هناك ؟

البعد عن السياسة

* واضح أنك ابتعدت عن الاشتغال بالسياسة ، مع أن السياسة أحد المضامين الهامة للأدب .. فلماذا ؟

- لقد ابتعدت عن السياسة دائمًا ابتعاد العاجز لاابتعاد القادر .. لأن الإفتاء السياسى يحتاج إلى علم شامل محيط بكل صغيرة وكبيرة فى أمور الاقتصاد والحرب والسلم والإنتاج .. ويحتاج إلى إحصاءات أمينة بكل إمكانات المجتمع .. وهذه أمور ليست تحت يدى ، ولهذا لا أستطيع أن أفتى فيما لا أعرف .

أحب هؤلاء

* من الذين نعمت بصحبتهم فكريًّا وفنيًّا ومن مختلف الاتجاهات الفكرية عبر عصور التاريخ ؟

- من الأنبياء : محمد عليه الصلاة والسلام .
- من الشعراء : المتنبى .
- من القصاصين : تشيكوف .
- ومن المسرحيين : أبسن .
- ومن الفلاسفة : أرسطو .
- ومن السياسيين : عمر بن العاص .
- ومن الموسيقيين : شوبان .
- ومن الرسامين : فان جوخ .
- ومن العسكريين : الإسكندر الأكبر .
- ومن العلماء : أينشتين .
- ومن الأطباء : أبقراط .
- ومن الرحالة : ماجلان .
- ومن العشاق : قيس بن الملوح .
- ومن الصوفية : ابن عبد الجبار النفرى .

حياتى كلها حب

* قلت له : ما دور الحب فى حياتك ؟

- قال : حياتى كلها حب .. لم ينقطع فيها الحب لحظة واحدة .. لم ينقطع الحوار بينى وبين المرأة .. ولابينى وبين الورود والفراشات .. وخرير الجداول .. وحمرة الغسق .. وشقشقة العصافير .. وابتسامة الوليد .. أنا فى حب دائم .. وأشعر أن الله هو المحبوب الحقيقى فى كل مانحب من معان وأشياء .

* كان سقراط يقول : إن أصعب الأسئلة هى التعريفات .. فهل يمكن أن تعرف هذه القيم :

الحب : هو قانون الجاذبية فى عالم الإنسان .

الخير : هو الله .

الجمال : هو الله .

الحق : هو الله .

كل هذه هى أسماء الله الحسنى .

هل أنت راضٍ عن نفسك ؟

- إطلاقًا .. أنا غير راضٍ دائمًا وأبدًا .. ودائمًا أشعر بأنى مثل البروفة أو المسودة المليئة بالأخطاء .

* وأمنياتك ؟

– أن يقبل ربى دعائى اليومى .. أن يقبلنى ربى يوم القيامة كمجرد جندى من جنود لا إله إلا الله .

وينتهى الحوار .. ويتداعى إلى ذهنى .. تلك الترنيمة العذبة من كلمات محدثى :

« إلهى .. لم تعد الدنيا ولا نفسى الطامعة فى الدنيا ولا العلوم التى تسخر لى هذه الدنيا .. ولا الكلمات التى أحتال بها على هذه الدنيا مرادى ولابضاعتى .. وإنما أنت وحدك مرادى ومقصودى ومطلوبى .. فعاونى بك عليك .. وخلصنى بك من سواك .. وطهرنى بنورك من عبوديتى لغيرك .. فكل طلب لغيرك خسار .

أنت أنت وحدك .. وما ارتضى مشوار هذه الدنيا إلا لدلالة هذا المشوار عليك .. وما يبهرنى الجمال إلا لصدوره عنك .. وما أقصد الخير ولا العدل ولا الحرية ولا الحق إلا لأنها تجليات وأحكام أسمائك الحسنى ، يامن تسميت بأنك الحق .. ولكن تلك هجرة لا أقدر عليها بدونك .. ونظرة لا أقوى عليها بغير معاونتك .. فعاونى وأشدد أزرى .. فحسبى النية والتوجه والمبادرة لذلك جهد الفقير .. فليس أفقر منى .. وهل بعد العدم فقر .. وقد جئت إلى الدنيا معدمًا وأخرج منها معدمًا .. وأجورها معدمًا .. زادى منك .. وقوتى منك .. ورؤيتى منك ونورى منك .

واليوم جاءت الهجرة الكبرى التى أعبر بها بحار الدنيا دون أن

أبتل .. وأخوض نارها دون أن أحترق .. فكيف السبيل إلى ذلك دون يد مضمومة إلى يدى ؟ وهل يدى إلا من صنع يديك ؟ وهل يدى إلا من يدك ؟ وهل هناك إلا يد واحدة ؟ .. لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين .

سبحانك لا أرى لى يدًا .
سبحانك لا أرى سواك .
لا إله إلا الله .
لا إله إلا الله حقًّا وصدقًا .

وذاتك هى واحدة الحسن .. الحسن كله منها .. والحب كله لها .

ويدك هى المشيئة .. والعقل كله منها . والقوة كلها بها . وإن تعددت الأيدى فى الظاهر .. وظن الظانون تعدد المشيئات .. وإن تعدد المحبون وتعددت المحبوبات .. وظن كل واحد أنه يقبل يد محبوبته .. فما يقبل إلا يدك دون أن يدروا .. سبحانك لاسواك . مايركع الكل إلا على بابك .. ومايلثم الكل إلا أعتابك .. مؤمنون وكفرة .. وإن ظن الكافر أن يلثم دينارًا ، أو يقبل شفة أو خدًّا ، فإنما هى أيادى رحمتك ، أو أيادى أمتك هى مايلثم ويقبل دون أن يدرى .

وإنما هى أسماء وأفعال وأوصاف ..
والمسمى واحد .. والفاعل واحد .. والموصوف واحد .

لا إله إلا الله .. لا إله إلا الله .

الحمد لله فى الأولى والآخرة ..

رفعت الأقلام وطويت الصحف .. وانتهت الكلمات ..

نجيب محفوظ يجيب على أصعب الأسئلة

لا شك أن نجيب محفوظ أحد قسمات الوجه للفكر الروائى العربى - إن صح هذا التعبير - فقد عاش فى مجتمعنا .. وصور واقع حياة مجتمعنا وهو يحاول أن يفك قيوده وينطلق من واقع اجتماعى عفن .. وكانت الشخصيات التى عبر عنها هى شخصيات مجتمعنا فى طبقاته الدنيا .. شخصيات تطحنها الحياة وهى تحاول أن تعبر الطريق إلى حياة أفضل .. إنك لابد عشت مع حميدة التى تمردت على زقاق المدق.

ولكنها ضلت طريقها ولم تعد إلى الحى إلا جثة هامدة .. وسعيد مهران بطل اللص والكلاب.

وعشرات .. من شخصيات نجيب محفوظ التى عاشت فى الأذهان

تردد فى الضمائر أنه لابد من تغيير هذا المجتمع .. وقامت الثورة .. وقضت على كثير من هذه الصور .. وأصبح لزامًا على الفن أن يعبر عن تدعيم القيم الجديدة .. وكانت قصص نجيب محفوظ تحمل هذا الطابع الأخير .. من أجل هذا كله قابلت نجيب محفوظ .. لأقوم برحلة مع أفكاره .

قلت له : يقولون : إنك مررت بثلاث مراحل فى كتاباتك ، هى : الرومانسية التاريخية والواقعية والتقدمية .. ثم اتجاهك الأخير .. فما صحة هذا الرأى ؟ .

قال : أعتقد أنه صحيح على الأقل فيما يتعلق بتمييز فترات ثلاث فى حياتى الأدبية .. وأعتقد أن النقاد أكثر بكثير على تحليل كل فترة ووصفها بالصفات التى تستحقها .

وعدت أسأله .. هل تأثر فى تلك الفترة التى استوحى فيها أحداث قصصه من الواقع الممزوج بالتاريخ برجل (كولتر سكوت) الذى كان له مثل هذا الطابع ؟ .

قال : إننى كتبت ثلاث روايات تاريخية هى (عبث الأقدار) و (رادوبيس) و (كفاح طيبة) إلا أننى عندما كتبتها لم أكن متأثرًا فيها بسكوت الذى لم أقرأ له إلا قصة واحدة .. ولكن الذى حبب إلى الكتابة التاريخية ، هو ما استطعت أن أطلع عليه من مؤلفات جورجى زيدان ، وقصة (ابنة المملوك) لمحمد فريد أبو حديد .

قلت له : الملاحظ أنك لا ترد إطلاقًا على نقد النقاد .. فما السر

فى ذلك؟ وهل اضطررت مرة أن ترد عليهم؟.

قال: لم يحدث أننى رددت على ناقد.. كما لم يحدث أننى أهملت قول ناقد.. ولعل السبب الأساسى فى ذلك، هو أننى أعتقد أن الرد على ناقد من اختصاص ناقد آخر وليس من اختصاص المؤلف الذى قال كل ما عنده فى عمله المنقود.. ولأننى أعتقد أن نقد الدنيا والآخرة لا يستطيع أن يرفع عملا أو يخفضه عما يستحق درجة.

وأنا أحب دائمًا أن أعرض عملى الفنى لعوامل الانتخاب الطبيعى.. فإذا كان يستحق الموت لمجرد أن ناقدًا هاجمه، فمن الخير أن يموت، وإذا كان مقدرًا له البقاء فسيبقى.

الأدب والثورة

وقلت له وأنا أنتقل إلى سؤال آخر: إذا كان الأدب مرآة تعكس حياة الشعوب وتحركها إلى أهدافها العريضة.. فهل استطاع الأدب العربى أن يعبر عن حياة مجتمعنا وانطلاقه الحضارى فى سنوات هذه الثورة؟.

هذا السؤال يسوقنا إلى أن نوضح كيف يمكن أن يعبر الأدب عن المرحلة التى يعيشها منذ ١٣ سنة.

أولا: بتحطيم القيم التى قام عليها المجتمع القديم، وقد قام الأدب بواجبه فى هذه الناحية عن طريق أشكاله المختلفة بعد

الثورة بالقصة القصيرة والرواية والمسرحية بصفة خاصة .. إنه يمكن أن يقال : إن نهضتنا المسرحية فى العامين الماضيين قامت أساسًا على مهاجمة القيم القديمة فى العهد القديم .. ولو أنه من الملاحظ أن الرواية المصرية قبل الثورة قد أدت مهمتها فى هذه الناحية .. وأن ما ألف بعد الثورة فى الرواية أو فى المسرح كان تكرارًا لما قامت به الرواية فى فترة نهضتها قبل الثورة .

ثانيًا : بالتاريخ كظاهرة تاريخية ومواقعها التاريخية مع أعدائها فى الداخل والخارج .. وقد قام الأدب بدوره فى هذا الشأن كما يشهد بذلك كثير من قصص يوسف السباعى وإحسان عبد القدوس وغيرهم .

ثالثًا : بمتابعة الحياة الجديدة فى متناقضاتها الجديدة وقد قام الأدب أيضًا بواجبه فى هذه الناحية .

رابعًا : بمعالجة القيم الجديدة فى حياتنا اليومية سواء فى الريف أو فى المدينة .. وعرض الأخلاق الجديدة والموطن الجديد .. وهذه الناحية بالذات تحتاج لفترة طويلة تمر بعد قيام الثورة تتحول فيها نظرتها الفلسفية والاجتماعية إلى مظاهر عادية من السلوك اليومى .. وغالبًا ما تحتاج هذه الفترة للتعبير عنها إلى كتاب جدد من الذين ولدوا ونشأوا فى دنيا الثورة الجديدة .

المضمون السياسى للفن

قلت له : هل يمكن أن تكون السياسة هى المضمون والشكل هو الفن ؟

- المضمون السياسى من أهم المضامين الأدبية فى جميع العصور من أيام الإلياذة إلى جان بول سارتر.

الشحاذ

قلت له : هل قصتك الأخيرة الشحاذ.. تناولتها بطريقة جديدة ؟

قال : بالنسبة لتكنيك القصة.. ليس فيها ما يعتبر جديدًا بالنسبة لما سبق أن استعملته ابتداءً من الثلاثية فميرامار مارًا باللص والكلاب والسمان والخريف حتى الشحاذ.. ويمكن تلخيصه فى الرغبة الملحة فى أن يفنى المؤلف فى موضوعه فناء تامًا.. بحيث إن القصة تجرى دون أى تدخل على الإطلاق من المؤلف، ومن داخل رأس الشخصية الأولى فيها.. يستفيد فى ذلك من اتجاه التراث الروائى من جهة ومن التكنيك السينمائى من ناحية أخرى.. وهو قد يصدم القارئ بعض الشىء، لكنها صدمة خفيفة سرعان

ما يتغلب عليها وهى تغريه بأن يتناول العمل المقروء بعناية واهتمام واجبين فيما أعتقد.. وتجعل العمل الفنى ملكة فى النهاية.

أصعب الأسئلة

قلت لنجيب محفوظ: أريد أن أسألك أصعب الأسئلة.. فأصعب الأسئلة فى رأى سقراط هى التعريفات.. فما تعريفك: للالتزام.. الحب.. الخير.. الجمال؟

وفكر طويلا ثم ضحك وهو يقول:

الالتزام: هو الشىء الذى نمارسه بطبيعتنا.. ونظن أننا نحتاج إلى توجيه أو تعليم.

الحب: هو أن يجد الإنسان فى شخص آخر ما يحدث فى شخصيته بشطريها المادى والروحى توازنًا وانسجامًا.

الخير: هو السلوك الذى يدفع الإنسان كفرد وكمجتمع وكإنسانية نحو الأفضل.

الجمال: هو ما يضم تعريف الحب والخير.

المرأة فى حياتى

وسألته : هل للمرأة دور فى حياتك ؟

وبابتسامة هادئة وإجابة دبلوماسية قال :

- طبيعى أن يكون للمرأة دور فى حياتى .. مادامت تتسلمنا من المجهول كأم، ثم تسلمنا له كزوجة .

* * *

وانتهى حديثى مع الروائى الذى استطاع أن يبنى قاعدة للقصة فى بلادنا .. تنطلق منها إلى الأفق العالمى ، متحررة من جاذبية المحلية والأفكار الساذجة ؛ ليكون لها مجالها الخاص بين القصص العالمية .

يوسف السباعى

ثلاث رصاصات غادرة أنهت حياة الكاتب الأديب يوسف السباعى، هذا الرجل الذى عشق الحب والسلام.. قضى على حياته من لا يعرفون الحب ولا السلام.. لقد كان يوسف السباعى إنسانًا بكل المقاييس التى يمكن أن تقال عن الإنسان.. إنه إنسان.. ومن عرفه عن قرب عرف فيه هذه الصفة.. فأحبه.. وبقدر ما يكون الحب، تكون فجيعة الإنسان فيمن يحب.

لقد كنت أسير خلف نعش الفقيد.. وكان خيالى يسرح بعيدًا.. إلى تلك الأيام التى عرفت فيها يوسف السباعى الأديب، والأيام التى عملت فيها معه وهو رئيس تحرير المجلة التى أعمل بها.. والأيام الأخيرة من حياته.

ومازلت أذكر أول لقاء معه كنت قد اتصلت به وحدد لى موعدًا .. وكان اللقاء فى نادى القصة .. وكنت متهيبًا هذا اللقاء .. فهو أديب ملء السمع والبصر .. مناصبه عديدة .. وكنت فى أول بداية عملى الصحفى .. إلا أن ابتسامته الودودة شجعتنى أن أجلس إليه .. وسرعان ما أشعرنى بأنه ليس هناك .. مسافة بينى وبينه .. حتى خيل إلى أننا أصدقاء منذ زمن بعيد . ورحت أفتش فى ذهنى عن سؤال .. ولكن الأسئلة هربت منى .. وابتسم وهو يقول لى هات ما عندك .. وضحكت وأنا ألقى عليه سؤالا غريبًا عن الابتسامات والدموع فى حياته ؟ .

صمت وهو يسألنى : هل تريد مقالا عن الدموع والابتسامات فى حياتى ؟

قلت له : مطلقًا .. أريد تحقيقًا صحفيًا عما مررت به من واقع دنياك من ابتسامات ودموع .

ولكن هذا يمكن أن يكون موضوع مقال أو قصة ؟ .

وكأنه أحس بمدى ارتباكى فإذا به يصمت قليلا وتنسحب الابتسامة من على شفتيه .. وكأنه يستحضر تلك الصور التى مرت به فى واقع دنياه . ثم قال :

حياة أى إنسان لا تخلو من الدموع والابتسامات فى كل أيامه .. إن دموع الإنسان على الغير .. أكثر من دموعه على نفسه .. ولا أظن أن الفشل يجعل الإنسان يبكى .. أو على الأقل ، فإن

دموعى لم أكن أسكبها على نفسى، ولكن كنت أتأثر بما يحيط بى من متاعب الغير.. آلام الغير.. أحزان الغير، فكل ذلك كان يهز مشاعرى. وأنا أعتقد أن الدموع لا تعبر عن حقيقة متاعب الإنسان أو عن فشله. وفى كثير من الأحيان، نرى أن الأوجاع فى الحقيقة التى لا تعبر عنها الدموع.. هناك ساعات نحس فيها أن الدموع تعبر عن سعادة غامرة تملأ النفس.. والابتسامة فى كثير من الأحيان لا تعبر عن السعادة.. قد تكون ستارًا أو دخانًا.. يحجب الصراع الحقيقى الذى يدور فى أعماق النفس البشرية، وقد تكون هذه الابتسامة تغطية لجو مفعم بالضيق.. قد تكون ابتسامة مقنعة.. ابتسامة تخفى وراءها مشاعر أليمة. وهناك ابتسامة السخرية.. كما أن هناك الابتسامة التى تعبر عن المرارة.. واستطيع أن أقول: كما أن هناك ابتسامة تعبر عن المرارة.. ولا تعبر عن الصفاء.. فهناك أيضًا الدموع التى لا تعبر عن الأحزان. فلا الدموع بمقياس للأحزان ولا الابتسامة بمقياس للتعبير عن السعادة.

ولا أعرف الدافع الذى دفعنى أن أسأله عن الدموع فى حياته هو شخصيًا.. ربما لاعتقادى أن الفنان عندما تعتريه لحظة حزن، يكون ذلك ميلاد عمل فنى، فالأحزان أكثر قدرة فى تفجير طاقات الفنان عن الابتسامات.

أذكر يومها أنه أجاب:

أنا أكره الدموع.. اعتبرها مظهرًا من مظاهر الضعف،

والضعف يجب أن يستر . وبالرغم من ذلك ، ففى كثير من الأحيان .. لا يستطيع الإنسان أن يستر ضعفه .. هناك مواقف كثيرة كشفت عن ضعفي .. أتذكر أول دمعة انسكبت من عينى ولم أستطع أن أكبح جماحها وأصبح الإمساك بها شيئًا من المستحيل . كان عمرى حينذاك أربعة عشر عامًا ، عندما مات والدى .. كنت أعتبره أبي وأخي وصديقى وزميلى .. وكان أستاذى ، منه تعلمت الحياة .. وكانت مؤلفاته مصابيح تضىء لى معالم الطريق وتدفعنى نحو الاتجاه إلى الأدب والفن .

وهناك دمعة أخرى فى حياتى لم أستطع أن أحبسها فى عينى .. هذه الدمعة ملأت عينى يوم مات زميلى فى الكلية الحربية ، وهو الزميل جمال صبرى يوم سقط من الطائرة يوم تخرجه .

وهناك دمعة أخرى فى حياتى .. أفلتت منى فى مناسبة تختلف كثيرًا عن مناسبة فقد الأعزاء والأقارب .. هذه الدمعة انطلقت من عينى يوم تحدث الرئيس جمال عبد الناصر عقب نكسة الانفصال .. يجوز أن الخطبة لا تعلن عن وفاء .. ولكن فيها إحساس بوفاة أمل .. وأحسست يومها بإنسانية الرئيس جمال عبد الناصر .. وأنه خذل بلا مبرر ، وأحسست أننى أشارك فى فقد عزيز .. ولكنه فقد معنوى ..

وسألته عن أثر هذه الدموع فى إنتاجه الفنى .. وهذا ما كنت أريد أن أخرج به من هذا اللقاء فقال :—

- الأديب أو الفنان يعبر عن مجتمعه والبيئة التى عاش عليها .. الأماكن التى اختلف إليها .. الأحباء الذين يحيطون به .. الأحداث التى هزت مشاعره .. كل ذلك ينعكس على إنتاجه الفنى .. ولكن ليس من المعقول أن كل كتابات الكاتب تعبر أو تعكس حياته الخاصة .. وكون الكاتب يستعين بواقعه وواقع غيره كخامة يبعث فيها الحياة ، لا يعنى هذا أنه يردد تجاربه الخاصة فى كل ما يكتب . إن الكاتب يستعين بواقعه فى بناء التصميم الفنى الذى يضعه للقصة . اللهم إلا إذا منحه القدر قصة متكاملة البناء الفني .. فى هذه الحالة يمكن أن يضعها كما هى دون أن يضيف إليها شيئاً .. كما انفعل بها وأحسها . ولكن أعتقد أن القصص تعبير عن قطاعات من الحياة .

- ازداد فضولى الصحفى .. وسألته عن قصة كانت تعبيراً عن تجاربه الشخصية .. يومها ابتسم وقال :

- كل أبطال قصصى تعبر كما قلت عن قطاعات من الحياة .. بعض هذه التجارب انعكست من خلال تجاربى الشخصية .. والبعض الآخر انعكاسة لحياة من حولى .. فأنا لا أضع قصصى من الهواء .. ولكن من تجارب حية سواء كانت لى أو لغيرى . كان هذا لقائى الأول بالأديب الكبير يوسف السباعى .. ومن خلال هذا اللقاء شعرت كأننى أعرفه منذ زمن بعيد .. وترددت عليه فى المجلس الأعلى للفنون والآداب .. ونادى القصة .. ودار الأدباء .. وأشركته

حتى فى مشاكلى الشخصية .. وكان دائمًا ، هو يوسف السباعى الفنان والإنسان.

وأزعم أننى قرأت معظم ما كتبه أديبنا الكبير يوسف السباعى .. وكان يعجبنى فى أعماله الأدبية .. قدرته العجيبة على السخرية من أوضاع تستحق السخرية ؛ لأنها أوضاع سهرات .. ومشاهد .. وكان لابد من السخرية منها حتى تتلاشى وتصبح مجرد صورة متلاشية من صورة الحياة.

كما أن أعماله الأدبية تناولت تطور مجتمعنا خلال سنوات الثورة .. وعبرت عن الحياة السياسية .. والاجتماعية . عبر هذه السيرة .. بجانب الأعمال التى كانت انعكاسًا . لما ترسب فى أعماقه أثناء الطفولة فى (جنينة ناميش).

وهذه الأعمال اتضحت فى أعماله :

* بين أبو الريش . وجنينة ناميش.
* يا أمة ضحكت.
* الشيخ زغراب.
* السقا مات.

فى كل هذه الأعمال تبرز قدرة المؤلف على صياغة القصة مستمدًا أحداثه من حياة الناس العاديين .. وأنه اختزل هذه الأعمال من طفولته .. وهو يعبر عن ذلك فى مقدمة كتابه (بين أبو الريش وجنينة ناميش).

إن القصة ذاتها ليست سوى برشامة أضع فيها الجولة .. تجد فى أحيان أخرى أن فكرة القصة .. قد تكون حاضرة .. وإنى لا أكاد أجلس للكتابة لإبرازها إلى حيز الوجود باحثًا عن مكان وزمان أجعلها فيه . وأجرى حوادثها به حتى أجد (جنينة ناميش) قد أطلت من رأسى وإذا بالسبل قد ضاقت بى إلا عن السد البرانى والمنيرة والسيدة وزين العابدين . وإذا بى أضع القصة فى هذه الأمكنة الرابضة من قديم العهد فى الذاكرة .. ويبدو لى أن هذه المنطقة من القاهرة أعنى منطقة السيدة زينب وما حولها من سيدى زينهم إلى الماوردى ، إلى الناصرية إلى درب الجماميز ، كانت موطنًا لجميع المصريين .. فما قابلت إنسانًا لا يعرف حوض (مسقى الحمير) فى ميدان المدبح ويذكر دائمًا (الأبوة) الموصلة من حارة السيدة إلى جنينة ناميش .

ويعرفنى أنى أذكره بأيام صباه .. أيام مدرسة محمد على ، وشارع الشيخ سلامة وسيدى الحبيبى ، وسيدى الطيب .

هذه الأرضية التى انطلق منها إنتاج أديبنا يوسف السباعى .. وهو يعطى نماذج حية من واقع الحياة .. ثم .. كانت رواياته تعبيرًا عن الحياة وواقعنا المصرى من خلال التغيرات السياسية والاجتماعية فى مصر .. أى أن هناك أكثر من خط يربط إنتاجه الفنى ، فقد كتب الرواية السياسية .. والرواية العاطفية .. والرواية الاجتماعية .. بجانب عشرات المجموعات القصصية .

لقد تنقل يوسف السباعى فى أكثر من منصب .. ولم يغيره المنصب قط .. فهو مثال الإنسان المتواضع الوفى للأصدقاء .. الخدوم حتى لأعدائه .. وقد كان آخر لقاء لنا منذ عدة أسابيع .. عقب مبادرة السلام .. وكانت كلماته عن المبادرة يرن صداها فى أذنى .

وفى الجانب الآخر وقف الأخوة الأعزاء رفاق الأمس .. والغد يطلبون .. رءوسنا ويهدرون دمنا .. لقد تعودنا منهم إهدار الدم بعد القبلات والمطالبة بالرأس بعد الأحضان .. وإذا حفظ الله رءوسنا من الإطاحة ، فإنها مازالت تنتظر القبلات . وإذا صان الله دمنا من الإهدار .. فأذرعنا مفتوحة لعناقهم .. حفظهم الله ممن أراد أن يطيح برءوسهم ، وأن يهدر دمهم .. وفتح الله عيونهم على الحق لأنها قضية وطن وليست لعبة شطرنج .. إنها قضية أولئك الذين أبصرناهم فى الأرض المقدسة يهتفون للرجل الشجاع ؛ لأنه أسمع العالم صوتهم .

إن الشعب المصرى كجزء من الأمة العربية ، يتحرك بكل الثقة والإصرار وهو واضح فى حركته فى طريق السلام العادل .. ملتزم بالحق العربى فى أرضه المقدسة وبحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره وإقامة دولته .

ويومها تحدث يوسف السباعى عن الأدب ودوره فى خدمة السلام العالمى لأن الأدب بطبعه يدعو إلى السلام وما كنت أدرى أن هذه هى آخر مرة أرى فيها الرجل الذى عاش للحب

وبالحب .. حب الناس جميعًا .. وكتب للناس معبرًا عن آمال الناس .. وما كان يدور بخلدى أن هذه الابتسامة الصافية .. والأمل الواثق .. والوجه الذى لا يعرف الوجوم .. ستنطفئ حياته بهذه السرعة .. ولكن عزاءنا أنه مات شهيدًا .. رحمه الله .

فهرس

رقم الإيداع	١٩٨٤ / ٣٤٩٥
الترقيم الدولى ٩-٠٣٧٩-٠١-٩٧٧	ISBN

١ / ٨٣ / ٢٢٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

